

﴿ تفسير سورة العنكبوت وهي مكية ﴾

﴿ بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ ﴾

﴿ أَلَمْ نَحْصِبِ النَّاسُ أَنْ يُتْرَكُوا أَنْ يَقُولُوا ءَامَنَّا وَهُمْ لَا يُفْتَنُونَ * وَلَقَدْ فَتَنَّا الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ فَلَيَعْلَمَنَّ اللَّهُ الَّذِينَ صَدَقُوا وَلَيَعْلَمَنَّ الْكَاذِبِينَ * أَمْ حَسِبَ الَّذِينَ يَعْمَلُونَ السَّيِّئَاتِ أَنْ يَسْبِقُونَا سَاءَ مَا يَحْكُمُونَ ﴾

أما الكلام على الحروف المقطعة فقد تقدم في أول سورة البقرة . وقوله تعالى (أحسب الناس أن يتركوا أن يقولوا آمنا وهم لا يفتنون) استفهام انكار ومعناه أن الله سبحانه وتعالى لا يبد أن يتلى عباده المؤمنين بحسب ما عندهم من الإيمان كما جاء في الحديث الصحيح « أشد الناس بلاء الأنبياء ثم الصالحون ثم الأمثل فالأمثل ، يتلى الرجل على حسب دينه فان كان في دينه صلابة زيد له في البلاء » وهذه الآية كقوله (أم حسبتم أن تتركوا ولما يعلم الله الذين جاهدوا منكم ويعلم الصابرين) ومثلها في سورة براءة وقال في البقرة (أم حسبتم أن تدخلوا الجنة ولما يأتيكم مثل الذين خلوا من قبلكم مستهم البأساء والضراء وزلزلوا حتى يقول الرسول والذين آمنوا معه متى نصر الله ألا إن نصر الله قريب) ولهذا قال ههنا (ولقد فتنا الذين من قبلهم فليعلمن الله الذين صدقوا وليعلمن الكاذبين) أى الذين صدقوا في دعوى الإيمان ممن هو كاذب في قوله ودعواه ، والله سبحانه وتعالى يعلم ما كان وما يكون وما لم يكن لو كان كيف يكون . وهذا مجمع عليه عند أئمة السنة والجماعة وبهذا يقول ابن عباس وغيره في مثل قوله (إلا لنعلم) إلا لنرى وذلك لأن الرؤية إنما تتعلق بالموجود والعلم أعم من الرؤية فانه يتعلق بالمعدوم والموجود

وقوله تعالى (أم حسب الذين يعملون السيئات أن يسبقونا ساء ما يحكمون) أى لا يحسبن الذين لم يدخلوا في الإيمان أنهم يتخلصون من هذه الفتنة والامتحان ، فان من ورائهم من العقوبة والنكال ما هو أغلظ من هذا وأطم ولهذا قال (أم حسب الذين يعملون السيئات أن يسبقونا) أى يفوتونا (ساء ما يحكمون) أى بش ما يظنون

﴿ مَنْ كَانَ يَرْجُوا لِقَاءَ اللَّهِ فَإِنْ أَجَلَ اللَّهُ لَاتِ وَهُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ * وَمَنْ جَاهَدَ فَإِنَّمَا يُجَاهِدُ لِنَفْسِهِ إِنَّ اللَّهَ لَغَنِيٌّ عَنِ الْعَالَمِينَ * وَالَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَنُكَفِّرَنَّ عَنْهُمْ سَيِّئَاتِهِمْ وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَحْسَنَ الَّذِي كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴾

يقول تعالى (من كان يرجو لقاء الله) أى في الدار الآخرة وعمل الصالحات ورجا ما عند الله من الثواب الجزيل فان الله سيحقق له رجاءه ويوفيه عمله كاملا موفرا فان ذلك كائن لا محالة لأنه مميغ الدعاء بصير بكل الكائنات ولهذا قال تعالى (من كان يرجو لقاء الله فان أجل الله لآت وهو السميع العليم) وقوله تعالى (ومن جاهد فإنما يجاهد لنفسه) كقوله تعالى (من عمل صالحا فلنفسه) أى من عمل صالحا فإنما يعود نفع عمله على نفسه فان الله تعالى غنى عن أفعال العباد ولو كانوا كلهم على أتقى قلب رجل منهم ما زاد ذلك في ملكه شيئا ولهذا قال تعالى (ومن جاهد فإنما يجاهد لنفسه إن الله لغنى عن العالمين) قال الحسن البصرى : إن الرجل ليجاهد وما ضرب يوما من الدهر بسيف . ثم أخبر تعالى أنه مع غناه عن الخلائق جميعهم ومع بره وإحسانه بهم يجازى الذين آمنوا وعملوا الصالحات أحسن الجزاء وهو أنه يكفر عنهم أسوأ الذى عملوا ويجزئهم أجرهم بأحسن الذى كانوا يعملون فيقبل القليل من الحسنات ويثيب عليها الواحدة بعشر أمثالها إلى سبعائة ضعف ويجزى على السيئة بمثلها أو يفعو ويصفح كما قال تعالى (إن الله لا يظلم مثقال ذرة وإن تك حسنة يضاعفها ويؤت من لدنه أجرا عظيما) وقال ههنا (والذين آمنوا وعملوا الصالحات لنكفرن عنهم سيئاتهم ولنجزئهم أحسن الذى كانوا يعملون)

﴿ وَوَصَّيْنَا الْإِنْسَانَ بِوَالِدَيْهِ حُسْنًا وَإِنْ جَاهَدَاكَ لِتُشْرِكَ بِي مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ فَلَا تُطِعْهُمَا إِلَىٰ مَرْجِعِكُمْ
فَأَنْتُمْ بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ * وَالَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَنُدْخِلَنَّهُمْ فِي الصَّالِحِينَ ﴾

يقول تعالى آمراً بعباده بالإحسان إلى الوالدين بعد الحث على التمسك بتوحيده فان الوالدين هما سبب وجود الإنسان، ولها عليه غاية الإحسان، فالوالد بالانفاق والوالدة بالاشفاق، ولهذا قال تعالى (وقضى ربك ألا تعبدوا إلا إياه وبالوالدين إحساناً * إما يبلغن عندك الكبر أحدهما أو كلاهما فلا تقل لهما أف ولا تنهرهما وقل لهما قولا كريماً * واخفض لهما جناح الذل من الرحمة وقل رب ارحمهما كما ربياني صغيراً) ومع هذه الوصية بالرأفة والرحمة والإحسان إليهما في مقابلة إحسانهما المتقدم قال (وإن جاهداك لتشرك بي ما ليس لك به علم فلا تطعهما) أي وإن حرصا عليك أن تتابعهما على دينهما إذا كانا مشركين فإياك وإياهما فلا تطعهما في ذلك فان مرجعكم إلى يوم القيامة فأجزيك بإحسانك إليهما وصبرك على دينك وأحشرك مع الصالحين لا في زمرة والديك وإن كنت أقرب الناس إليهما في الدنيا فان المرء إنما يحشر يوم القيامة مع من أحب أي حبا دينياً ولهذا قال تعالى (والذين آمنوا وعملوا الصالحات لندخلنهم في الصالحين) وقال الترمذي عند تفسير هذه الآية: حدثنا محمد بن بشر ثنا محمد بن المثنى حدثنا محمد بن جعفر حدثنا شعبة عن سماك بن حرب قال : سمعت مصعب بن سعد يحدث عن أبيه سعد قال نزلت في أربع آيات فذكر قصته وقال : قالت أم سعد أليس الله قد أمرك بالبر؟ والله لا أطعم طعاما ولا أشرب شراباً حتى أموت أو تكفر قال فكانوا إذا أرادوا أن يطعموها شجروا فاهما فنزلت (ووصينا الإنسان بوالديه حسناً * وإن جاهداك لتشرك بي ما ليس لك به علم فلا تطعهما) الآية وهذا الحديث رواه الإمام أحمد ومسلم وأبو داود والنسائي أيضاً وقال الترمذي حسن صحيح

﴿ وَمِنَ النَّاسِ مَن يَقُولُ ءَامَنَّا بِاللَّهِ فَإِذَا أُوذِيَ فِي اللَّهِ جَمَلَ فِتْنَةَ النَّاسِ كَذَابِ اللَّهِ وَلَئِن جَاءَ نَصْرٌ مِّن رَّبِّكَ لَيَقُولُنَّ إِنَّا كُنَّا مَعَكُمْ أَوْ لَيْسَ اللَّهُ بِأَعْلَمَ بِمَا فِي صُدُورِ الْمُؤْمِنِينَ * وَلَيَعْلَمَنَّ اللَّهُ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَلَيَعْلَمَنَّ الْمُنَافِقِينَ ﴾

يقول تعالى مخبراً عن صفات قوم من المكذابين الذين يدعون الإيمان بالسقمة ولم يثبت الإيمان في قلوبهم بأنهم إذا جاءتهم محنة وفتنة في الدنيا اعتقدوا أن هذا من نعمة الله تعالى بهم فارتدوا عن الإسلام، ولهذا قال تعالى (ومن الناس من يقول آمنا بالله فإذا أؤذي في الله جعل فتنة الناس كذاب الله) قال ابن عباس يعني فتنته أن يرتد عن دينه إذا أؤذي في الله وكذا قال غيره من علماء السلف، وهذه الآية كقولها تعالى (ومن الناس من يعبد الله على حرف فان أصابه خير اطمأن به وإن أصابه فتنة انقلب على وجهه - إلى قوله - ذلك هو الضلال البعيد) ثم قال عز وجل (ولئن جاء نصر من ربك ليقولن إننا كنا معكم) أي ولئن جاء نصر قريب من ربك يا محمد وفتح ومغانم ليقولن هؤلاء لكم إننا كنا معكم أي إخوانكم في الدين كما قال تعالى (الذين يتربصون بكم فإن كان لكم فتحة من الله قالوا ألم نكن معكم وإن كان للكافرين نصيب قالوا ألم نستحوذ عليكم ونمنعكم من المؤمنين وقال تعالى (نفسى الله أن يأتى بالفتح أو أمر من عنده فيصبحوا على ما أسروا في أنفسهم ناديين) وقال تعالى مخبراً عنهم ههنا (ولئن جاء نصر من ربك ليقولن إننا كنا معكم) ثم قال الله تعالى (أو ليس الله بأعلم بما في صدور العالمين) أي أو ليس الله بأعلم بما في قلوبهم وما تكنه ضمائرهم وان أظهروا لكم الواقعة؟ وقوله تعالى (وليعلمن الله الذين آمنوا وليعلمن المنافقين) أي وليخبرن الله الناس بالضراء والسراء لتمييز هؤلاء من هؤلاء من يطيع الله في الضراء والسراء، ومن إنما يطيعه

في حظ نفسه كما قال تعالى (ولنبؤنكم حتى نعلم المجاهدين منكم والصابرين ونبؤ أخباركم) وقال تعالى بعد وقعة أحد التي كان فيها ما كان من الاختبار والامتحان (ما كان الله ليدر المؤمنين على ما أتم عليه حتى يميز الخبيث من الطيب) الآية

﴿ وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِلَّذِينَ آمَنُوا اتَّبِعُوا سَبِيلَنَا وَلْنَحْمِلْ خَطَايَكُمْ وَمَا هُمْ بِحَامِلِينَ مِنْ خَطَايَهُمْ مِنْ شَيْءٍ إِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ * وَلِيَحْمِلُنَّ أَثْقَالَهُمْ وَأَنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ ﴾

يقول تعالى مخبراً عن كفار قريش أنهم قالوا لمن آمن منهم واتبع الهدى : ارجعوا عن دينكم إلى ديننا واتبعوا سبيلنا (ولنحمل خطاياكم) أى وآثامكم إن كانت لكم آثام في ذلك علينا وفي رقابنا كما يقول القائل : افعَل هذا وخطيئتك في رقبتي ، قال الله تعالى تكذبا لهم (وما هم بحاملين من خطاياهم من شيء إنهم لكاذبون) أى فيما قالوه إنهم يحملون عن أولئك خطاياهم فإنه لا يحمل أحد وزر أحد قال الله تعالى (وإن تدع مثقلة إلى حملها لا يحمل منه شيء ولو كان ذا قربى) وقال تعالى (ولا يسئل حميم حميا يبصرونهم) وقوله تعالى (وليحملن أثقالهم وأثقالا مع أثقالهم) إخبار عن الهداة إلى الكفر والضلالة أنهم يحملون يوم القيامة أوزار أنفسهم وأوزاراً آخر بسبب ما أضلوا من الناس من غير أن ينقص من أوزار أولئك شيئاً كما قال تعالى (ليحملوا أوزارهم كاملة يوم القيامة ومن أوزار الذين يضلونهم بغير علم) الآية وفي الصحيح « من دعا إلى ضلالة كان له من الأجر مثل أجور من اتبعه إلى يوم القيامة من غير أن ينقص من أجورهم شيئاً ، ومن دعا إلى ضلالة كان عليه من الأثم مثل آثام من اتبعه إلى يوم القيامة من غير أن ينقص من آثامهم شيئاً » وفي الصحيح « ما قتلت نفس ظالماً إلا كان على ابن آدم الأول كفل من دمها لأنه أول من سن القتل » وقوله تعالى (وليسئلن يوم القيامة عما كانوا يفترون) أى يكذبون ويختلقون من البهتان ، وقد ذكر ابن أبي حاتم ههنا حديثاً فقال : حدثنا أبو هشام بن عمار حدثنا صدقة حدثنا عثمان بن حفص بن أبي العالية حدثني سليمان بن حبيب الحاربي عن أبي أمامة رضى الله عنه أن رسول الله ﷺ بلغ ما أرسل به ثم قال « إياكم والظلم فإن الله يعزم يوم القيامة فيقول : وعزتي وجلالي لا يجوزني اليوم ظلم ثم ينادى مناد فيقول أين فلان بن فلان ؟ فيأتى يتبعه من الحسنات أمثال الجبال فيشخص الناس إليها أبصارهم حتى يقوم بين يدي الرحمن عز وجل ثم يأمر المنادى فينادى من كانت له تباعة أو ظلامة عند فلان بن فلان فهلهم فيقبلون حتى يجتمعوا قياماً بين يدي الرحمن فيقول الرحمن اقضوا عن عبدي فيقولون كيف تقضى عنه ؟ فيقول خذوا لهم من حسناته فلا يزالون يأخذون منها حتى لا يبقى منها حسنة وقد بقي من أصحاب الظلمات فيقول اقضوا عن عبدي فيقولون لم يبق له حسنة فيقول خذوا من سيئاتهم فاحملوها عليه » ثم نزع النبي صلى الله عليه وسلم بهذه الآية الكريمة (وليحملن أثقالهم وأثقالا مع أثقالهم وليسئلن يوم القيامة عما كانوا يفترون) وهذا الحديث له شاهد في الصحيح من غير هذا الوجه « إن الرجل ليأتى يوم القيامة بحسنات أمثال الجبال وقد ظلم هذا وأخذ مال هذا وأخذ من عرض هذا فأخذ هذا من حسناته وهذا من حسناته فإذا لم تبق له حسنة أخذ من سيئاتهم فطرح عليه » وقال ابن أبي حاتم حدثنا أحمد بن أبي الحواري حدثنا أبو بشر الحذاء عن أبي حمزة الثمالي عن معاذ بن جبل رضى الله عنه قال : قال لى رسول الله صلى الله عليه وسلم « يا معاذ إن المؤمن يسئل يوم القيامة عن جميع سعيه حتى عن كحل عينيه وعن فتات الطينة باصبعيه فلا ألفتك تأتي يوم القيامة وأحد أسعد بما آتاك الله منك » .

﴿ وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوْمِهِ فَلَبِثَ فِيهِمْ أَلْفَ سَنَةٍ إِلَّا خَمْسِينَ عَامًا فَأَخَذَهُمُ الطُّوفَانُ وَهُمْ ظَالِمُونَ * فَأَنْجَيْنَاهُ وَأَصْحَابَ السَّفِينَةِ وَجَمَعْنَاهَا آيَةً لِلْعَالَمِينَ ﴾

هذه تسلية من الله تعالى لعبده ورسوله محمد صلى الله عليه وسلم يخبره عن نوح عليه السلام أنه مكث في قومه هذه المدة

يدعوم إلى الله تعالى ليلا ونهاراً وسراً وجهاراً ومع هذا ما زادهم ذلك إلا فراراً عن الحق وإعراضاً عنه وتمكدياً له وما آمن معه منهم إلا قليل ولهذا قال تعالى (قلبت فيهم ألف سنة إلا خمسين عاماً فأخذهم الطوفان وهم ظالمون) أى بعد هذه المدة الطويلة ما نجح فيهم البلاغ والانذار فأنت يا محمد لا تأسف على من كفر بك من قومك ولا تحزن عليهم فإن الله يهدي من يشاء ويضل من يشاء ويبدد الأمر وإليه ترجع الأمور (إن الدين حقت عليهم كلمة ربك لا يؤمنون ولو جاءتهم كل آية) الآية واعلم أن الله سيظهرك وينصرك ويؤيدك وينزل عدوك ويكتبهم ويجعلهم أسفل السافلين . قال حماد بن سلمة عن علي بن زيد عن يوسف بن مارك عن ابن عباس قال : بعث نوح وهو لأربعين سنة ولبث في قومه ألف سنة إلا خمسين عاماً وعاش بعد الطوفان ستين عاماً حتى كثر الناس وفشوا ، وقال قتادة يقال إن عمره كله ألف سنة إلا خمسين عاماً لثبت فيهم قبل أن يدعوم ثلاثمائة سنة ودعاهم ثلاثمائة سنة ولبث بعد الطوفان ثلاثمائة سنة وخمسين عاماً وهذا قول غريب ، وظاهر السياق من الآية أنه مكث في قومه يدعوم إلى الله ألف سنة إلا خمسين عاماً . وقال عون بن أبي شداد إن الله تعالى أرسل نوحاً إلى قومه وهو ابن خمسين وثلاثمائة سنة فدعاهم ألف سنة إلا خمسين عاماً ، ثم عاش بعد ذلك ثلاثمائة وخمسين سنة وهذا أيضاً غريب رواه ابن أبي حاتم وابن جرير وقول ابن عباس : أقرب والله أعلم وقال الثوري عن سلمة بن كهيل عن مجاهد قال : قال لي ابن عمر : كم لبث نوح في قومه ؟ قال قلت ألف سنة إلا خمسين عاماً قال فإن الناس لم يزلوا في نقصان من أعمارهم وأحلامهم وأخلاقهم إلى يومك هذا ، وقوله تعالى (فأنجيناها وأصحاب السفينة) أى الدين آمن بنوح عليه السلام وقد تقدم ذكر ذلك مفصلاً في سورة هود ، وتقدم تفسيره بما أغنى عن إعادته ، وقوله تعالى (وجعلناها آية للعالمين) أى وجعلنا تلك السفينة باقية إماميتها كما قال قتادة إنها بقيت إلى أول الإسلام على جبل الجودي أو نوعها جعله للناس تذكرة لنعمة على الخلق كيف أنجاهم من الطوفان كما قال تعالى (وآية لهم أنا حملنا ذريتهم في الفلك المشحون) وخلقنا لهم من مثله ما يركبون - إلى قوله - ومتاعاً إلى حين) وقال تعالى (إنا لما طغى الماء حملناكم في الجارية) لنجعلها لكم تذكرة وتعيها أذن واعية) وقال ههنا (فأنجيناها وأصحاب السفينة وجعلناها آية للعالمين) وهذا من باب التدرج من الشخص إلى الجنس كقوله تعالى (ولقد زينا السماء الدنيا بمصابيح وجعلناها رجوما للشياطين) أى وجعلنا نوعها رجوماً فإن التي يرمى بها ليست هي زينة السماء وقال تعالى (ولقد خلقنا الإنسان من سلالة من طين) ثم جعلناه نطفة في قرار مكين) ولهذا نظائر كثيرة وقال ابن جرير : لو قيل إن الضمير في قوله (وجعلناها) عائد إلى العقوبة لكان وجهاً والله أعلم .

﴿ وَإِذْ يَرْهَمَ إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِ أَعْبُدُوا اللَّهَ وَأَنْتُمْ ذَلِكُمْ خَيْرٌ لَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ تَعْمُونَ * إِنَّمَا تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ أَوْثَانًا وَتَخْلُقُونَ إِفْكًا إِنَّ الَّذِينَ تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ لَا يَمْلِكُونَ لَكُمْ رِزْقًا فَابْتَغُوا عِنْدَ اللَّهِ الرِّزْقَ وَاعْبُدُوهُ وَأَشْكُرُوا لَهُ إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ * وَإِنْ تَكْذَبُوا فَقَدْ كَذَّبَ أُمَمٌ مِّنْ قَبْلِكُمْ وَمَا عَلَى الرَّسُولِ إِلَّا الْبَلْغُ الْمُبِينُ ﴾

يخبر تعالى عن عبده ورسوله وخليه إبراهيم إمام الحنفاء أنه دعا قومه إلى عبادة الله وخذله لا شريك له والإخلاص له في التقوى وطلب الرزق منه وحده لا شريك له ، وتوجيهه في الشكر فإنه الشكور على النعم لا مسدى لها غيره فقال لقومه (اعبدوا الله واتقوه) أى أخلصوا له العبادة والخوف (ذلكم خير لكم إن كنتم تعلمون) أى إذا فعلتم ذلك حصل لكم الخير في الدنيا والآخرة واندمع عنكم الشرف في الدنيا والآخرة ، ثم أخبر تعالى أن الأصنام التي يعبدونها لا تنفع ولا تنفع وإنما اختلقتم أتم لها أسماء فسميتموها آلهة وإنما هي مخلوقة مثلكم ، هكذا رواه العوفي عن ابن عباس وبه قال مجاهد والسدي ، وروى الوالي عن ابن عباس وتصنعون إفكاً أى تنتحونها أصناماً وبه قال مجاهد في رواية ، وعكرمة والحسن وقاتدة وغيرهم واختاره ابن جرير رحمه الله . وهي لا تملك لكم رزقاً (فابتغوا عند الله الرزق) وهذا بلغ في الحصر

كقوله (إياك نعبد وإياك نستعين) (رب ابن لي عندك بيتا في الجنة) ولهذا قال (فابتغوا) أى فاطلبوا (عند الله الرزق) أى لا عند غيره فان غيره لا يملك شيئا (واعبدوه واشكروا له) أى كلوا من رزقه واعبدوه وحده واشكروا له على ما أنعم به عليكم (إليه ترجعون) أى يوم القيامة فيجازى كل عامل بعمله ، وقوله تعالى (وإن تكذبوا فقد كذب أمم من قبلكم) أى فبلغكم ما حل بهم من العذاب والنكال في مخالفة الرسل (وما على الرسول إلا البلاغ المبين) يعنى إنما على الرسول أن يبلغكم ما أمره الله تعالى به من الرسالة والله يضل من يشاء ويهدي من يشاء فأحرصوا لأنفسكم أن تكونوا من السعداء وقال قتادة في قوله (وإن تكذبوا فقد كذب أمم من قبلكم) قال يعزى نبيه ﷺ وهذا من قتادة يقتضى أنه قد انقطع الكلام الأول واعترض بهذا إلى قوله (فما كان جواب قومه) وهكذا نص على ذلك ابن جرير أيضاً. والظاهر من السياق أن كل هذا من كلام إبراهيم الخليل عليه السلام يحتج عليهم لإثبات المعاد لقوله بعد هذا كله (فما كان جواب قومه) والله أعلم

﴿ أَوَلَمْ يَرَوْا كَيْفَ يُبْدِئُ اللَّهُ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ إِنَّ ذَلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرٌ * قُلْ سِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَانظُرُوا كَيْفَ بَدَأَ الْخَلْقَ ثُمَّ اللَّهُ يُنشِئُ النَّشْأَةَ الْآخِرَةَ إِنَّ اللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ * يُعَذِّبُ مَن يَشَاءُ وَيَرْحَمُ مَن يَشَاءُ وَإِلَيْهِ تُقْلَبُونَ * وَمَا أَنْتُمْ بِمُعْجِزِينَ فِي الْأَرْضِ وَلَا فِي السَّمَاءِ وَمَا لَكُم مِّن دُونِ اللَّهِ مِن وَلِيٍّ وَلَا نَصِيرٍ * وَالَّذِينَ كَفَرُوا بِآيَاتِ اللَّهِ وَرِئَاسِهِ أُولَٰئِكَ يَتَّخِذُونَ أَوْلِيَائِهِمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ فَسَبِّحُوا بِحَمْدِ رَبِّكَ حِينَ تَقُومُ وَمِنْ وَجْهِكَ لَكُمُ الْعَذَابُ أَلِيمٌ ﴾

يقول تعالى مخبرا عن الخليل عليه السلام أنه أرشدهم إلى إثبات المعاد الذى ينكرونه بما يشاهدونه في أنفسهم من خلق الله إياهم بعد أن لم يكونوا شيئا مذكورا ثم وجدوا وصاروا أناسا سامعين مبصرين فالذى بدأ هذا قادر على إعادته فانه سهل عليه يسير لديه ، ثم أرشدهم إلى الاعتبار بما في الآفاق من الآيات المشاهدة من خلق الله الأشياء : السموات وما فيها من الكواكب النيرة الثوابت والسيارات ، والأرضين وما فيها من مهاد وجبال ، وأودية وبرارى وقنار ، وأشجار وأنهار ، وثمار وبهار ، كل ذلك دال على حدوثها في أنفسها وعلى وجود صانعها الفاعل المختار ، الذى يقول للشيء كن فيكون ولهذا قال (أولم يروا كيف يبدئ الله الخلق ثم يعيده إن ذلك على الله يسير) كقوله تعالى (وهو الذى يبدأ الخلق ثم يعيده وهو أهون عليه) ثم قال تعالى (قل سيروا في الأرض فانظروا كيف بدأ الخلق ثم الله ينشئ النشأة الآخرة) أى يوم القيامة (إن الله على كل شيء قدير) وهذا المقام شبيه بقوله تعالى (سنبهم آياتنا في الآفاق وفي أنفسهم حتى يتبين لهم أنه الحق) وكقوله تعالى (أم خلقوا من غير شيء أم هم الخالقون؟ أم خلقوا السموات والأرض بل لا يوقنون) وقوله تعالى (يعذب من يشاء ويرحم من يشاء) أى هو الحاكم التصرف الذى يفعل ما يشاء ويحكم ما يريد لا معقب لحكمه ، ولا يستل عما يفعل وهم يسئلون فله الخلق والأمر مهما فعل فعندل لأنه المالك الذى لا يظلم مثقال ذرة كما جاء في الحديث الذى رواه أهل السنن « إن الله لو عذب أهل سماواته وأهل أرضه لعذبهم وهو غير ظالم لهم » ولهذا قال تعالى (يعذب من يشاء ويرحم من يشاء وإليه تقلبون) أى ترجعون يوم القيامة وقوله تعالى (وما أنتم بمعجزين في الأرض ولا في السماء) أى لا يعجزه أحد من أهل سماواته وأرضه بل هو القاهر فوق عباده فكل شيء خائف منه فقير إليه وهو الغنى عما سواه (وما لكم من دون الله من ولي ولا نصير) والذين كفروا بآيات الله ولقائه (أى جحدوها وكفروا بالمعاد) أولئك يشوا من رحمتي (أى لا نصيب لهم فيها) وأولئك لهم عذاب أليم (أى موجع شديد في الدنيا والآخرة)

﴿ فَمَا كَانَ جَوَابَ قَوْمِهِ إِلَّا أَنْ قَالُوا اقْتُلُوهُ أَوْ حَرِّقُوهُ فَأَنْجَاهُ اللَّهُ مِنَ النَّارِ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ ﴾

يُؤْمِنُونَ * وَقَالَ إِنَّمَا اتَّخَذْتُمْ مِّنْ دُونِ اللَّهِ أَوْثَانًا مَّوَدَّةَ بَيْنِكُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا ثُمَّ يَوْمَ الْقِيَامَةِ يَكْفُرُ بَعْضُكُم بِبَعْضٍ وَيَلْعَنُ بَعْضُكُم بَعْضًا وَمَأْوَاكُمُ النَّارُ وَمَا لَكُم مِّنْ نَّصِيرِينَ ﴿١٠٠﴾

يقول تعالى مخبراً عن قوم إبراهيم في كفرهم وعنادهم ومكابرتهم ودفعتهم الحق بالباطل أنهم ما كان لهم جواب بعد مقالة إبراهيم هذه المشتملة على الهدى والبيان (إلا أن قالوا اقتلوه أو حرقوه) وذلك لأنهم قام عليهم البرهان وتوجهت عليهم الحجة فعدلوا إلى استعمال جاههم وقوة ملكهم (فقالوا ابناؤه بنياناً فألقوه في الجحيم * وأرادوا به كيدا فجعلناهم الأسفلين) وذلك أنهم حشدوا في جمع أحطاب عظيمة مدة طويلة وحوطوا حولها ثم أضرموا فيها النار فارتفع لها لهب إلى عنان السماء ، ولم توقد نار قط أعظم منها ثم عمدوا إلى إبراهيم فكثفوه وألقوه في كفة المنجنيق ثم قدفوه فيها فجعلها الله عليه برداً وسلاماً ، وخرج منها سالماً بعد ما مكث فيها أياماً ، ولهذا وأمثاله جعله الله للناس إماماً . فانه بذل نفسه للرحمن ، وجسده للنيران ، وسخا بولده للقربان ، وجعل ماله للضيفان ، ولهذا اجتمع على محبته جميع أهل الأديان . وقوله تعالى (فأنجاه الله من النار) أى سلمه منها بأن جعلها عليه برداً وسلاماً (إن في ذلك لآيات لقوم يؤمنون * وقال إنما اتَّخَذْتُمْ مِّنْ دُونِ اللَّهِ أَوْثَانًا مَّوَدَّةَ بَيْنِكُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا) يقول لقومه مقرعاً لهم وموجهاً على سوء صنيعهم في عبادتهم للأوثان إنما اتَّخَذْتُمْ هذه لتجتمعوا على عبادتها في الدنيا صداقة وألفة منكم بعضكم لبعض في الحياة الدنيا وهذا على قراءة من نصب مودة بينكم على أنه مفعول له ، وأما على قراءة الرفع فعناه إنما اتَّخَذْتُمْ هذا لتحصل لكم المودة في الدنيا فقط (ثم يوم القيامة) ينعكس هذا الحال فتبقى هذه الصداقة والمودة بغضاً وشتاناً ثم (يكفر بعضكم ببعض) أى تتجاهدون ما كان بينكم (ويلعن بعضكم بعضاً) أى يلعن الأتباع التبوعين والتبوعون الأتباع (كلما دخلت أمة لعنت أختها) وقال تعالى (الأخلاء يومئذ بعضهم لبعض عدو إلا المتقين) وقال ههنا (ثم يوم القيامة يكفر بعضكم ببعض ويلعن بعضكم بعضاً ومأواكم النار) الآية أى ومصيركم ومرجعكم بعد عرصات القيامة إلى النار ومالككم من ناصر ينصركم ولا منقذ ينقذكم من عذاب الله وهذا حال الكافرين ، وأما المؤمنون فبخلاف ذلك . قال ابن أبي حاتم حدثنا محمد بن إسماعيل الأحمسي حدثنا أبو عاصم الثقفي ثنا الربيع بن إسماعيل بن عمرو بن سعيد بن جعدة ابن هيرة المخزومي عن أبيه عن جده عن أم هانئ أخت علي بن أبي طالب قالت : قال لي النبي ﷺ « أخبرك أن الله تعالى يجمع الأولين والآخرين يوم القيامة في صعيد واحد فمن يدرى أين الطرفان ؟ - قالت الله ورسوله أعلم - ثم ينادى مناد من تحت العرش يا أهل التوحيد فيشربون - قال أبو عاصم يرفعون رؤوسهم - ثم ينادى يا أهل التوحيد ، ثم ينادى الثالثة يا أهل التوحيد إن الله قد عفا عنكم - قال - فيقوم الناس قد تعلق بعضهم ببعض في ظلمات الدنيا - يعنى الظلم - ثم ينادى يا أهل التوحيد ليعف بعضكم عن بعض وعلى الله الثواب »

﴿ فَتَأْمَنُ لَهُ لُوطٌ وَقَالَ إِنِّي مُهَاجِرٌ إِلَى رَبِّي إِنَّهُ هُوَ الْوَزِيرُ الْحَكِيمُ * وَوَهَبْنَا لَهُ إِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ وَجَعَلْنَا فِي ذُرِّيَّتِهِ النُّبُوَّةَ وَالْكِتَابَ وَآتَيْنَاهُ أَجْرَهُ فِي الدُّنْيَا وَإِنَّهُ فِي الْآخِرَةِ لَكَانَ الصَّالِحِينَ ﴾

يقول تعالى مخبراً عن إبراهيم أنه آمن له لوط يقال إنه ابن أخى إبراهيم ، يقولون هو لوط بن هاران بن آزر يعنى ولم يؤمن به من قومه سواء وسارة امرأة إبراهيم الخليل لكن يقال كيف الجمع بين هذه الآية وبين الحديث الوارد في الصحيح أن إبراهيم حين مر على ذلك الجبار فسأل إبراهيم عن سارة ما هى منه فقال أختى ، ثم جاء إليها فقال لها انى قد قلت له إنك أختى فلا تكذبنى فانه ليس على وجه الأرض مؤمن غيرى وغيرك فأنت أختى في الدين . وكان المراد من هذا والله أعلم أنه ليس على وجه الأرض زوجان على الاسلام غيرى وغيرك فان لوطا عليه السلام آمن به من قومه وهاجر معه إلى بلاد الشام ثم أرسل في حياة الخليل إلى أهل سدوم وإقليمها وكان من أمرهم ما تقدم وما سأتى

وقوله تعالى (وقال إني مهاجر إلى ربي) يحتمل عود الضمير في قوله (وقال) على لوط لأنه هو أقرب المذكورين ويحتمل عوده إلى إبراهيم . قاله ابن عباس والضحاك وهو المكنى عنه بقوله (فأمن له لوط) أي من قومه ثم أخبر عنه بأنه اختار المهاجرة من بين أظهرهم ابتغاء اظهار الدين والتمكن من ذلك ولهذا قال (إنه هو العزيز الحكيم) أي له العزة ورسوله وللمؤمنين به الحكيم في أقواله وأفعاله وأحكامه القدرية والشرعية . وقال قتادة: هاجرا جميعا من كوثي وهي من سواد الكوفة إلى الشام . قال وذكر لنا أن نبي الله صلى الله عليه وسلم قال : «إنها ستكون هجرة بعدهجرة ينحاز أهل الأرض إلى مهاجر إبراهيم ويبقى في الأرض شرار أهلها حتى تلفظهم أرضهم وتقذرم روح الله عز وجل وتحشرهم النار مع القردة والحنازير تبيت معهم إذا باتوا ، وتقبل معهم إذا قالوا وتأكل ما سقط منهم» وقد أسند الإمام أحمد هذا الحديث فرواه مطولا من حديث عبد الله بن عمرو بن العاص قال حدثنا عبد الرزاق أخبرنا معمر عن قتادة عن شهر بن حوشب قال : لما جاءتنابيعة يزيد بن معاوية قدمت الشام فأخبرت بمقام يقومه نوف البكالي فجنته إذ جاء رجل فانتبذ الناس وعليه خميسة فاذا هو عبد الله بن عمرو بن العاص فلما رآه نوف أمسك عن الحديث فقال عبد الله : سمعت رسول الله ﷺ يقول : «إنها ستكون هجرة بعد هجرة فينحاز الناس إلى مهاجر إبراهيم لا يبقى في الأرض إلا شرار أهلها تلفظهم أرضهم وتقذرم نفس الرحمن ، تحشرهم النار مع القردة والحنازير فتبيت معهم إذا باتوا ، وتقبل معهم إذا قالوا ، وتأكل من تخلف منهم» قال وسمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول «سيخرج أناس من أمتي من قبل المشرق يقرءون القرآن لا يجاوز تراقيهم كلما خرج منهم قرن قطع كلما خرج منهم قرن قطع - حتى عدتها زيادة على عشرين مرة - كلما خرج منهم قرن قطع حتى يخرج الدجال في بقيتهم» ورواه الإمام أحمد عن أبي داود وعبد الصمد كلاهما عن هشام الدستوائي عن قتادة به ، وقد رواه أبو داود في سننه فقال في كتاب الجهاد (باب ما جاء في سكنى الشام) حدثنا عبيد الله بن عمر حدثنا معاذ بن هشام حدثني (١) عن قتادة عن شهر بن حوشب عن عبد الله بن عمرو قال سمعت رسول الله ﷺ يقول «ستكون هجرة بعد هجرة وينحاز أهل الأرض إلى مهاجر إبراهيم ويبقى في الأرض شرار أهلها تلفظهم أرضهم ، وتقذرم نفس الرحمن ، وتحشرهم النار مع القردة والحنازير» وقال الإمام أحمد حدثنا يزيد أخبرنا أبو جناب يحيى بن أبي حية عن شهر بن حوشب قال سمعت عبد الله بن عمرو يقول : لقد رأيتنا وما صاحب الدينار والدرهم بأحق من أخيه المسلم ، ثم لقد رأيتنا بأخرة الآن والدينار والدرهم أحب إلى أحدنا من أخيه المسلم ، وسمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول «لئن أتم اتبعتم أذئاب البقر وتبايعتم بالعينة وتركتم الجهاد في سبيل الله ليلزمكم الله مذلة في أعناقكم لاتنزع منكم حتى ترجعوا إلى ما كنتم عليه وتوبوا إلى الله تعالى» وسمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول «لتكونن هجرة بعد هجرة إلى مهاجر أيبكم إبراهيم حتى لا يبقى في الأرض إلا شرار أهلها تلفظهم أرضهم ، وتقذرم روح الرحمن ، وتحشرهم النار مع القردة والحنازير تقبل معهم حيث قالوا وتبيت معهم حيث يبيتون وما سقط منهم فلها» ولقد سمعت رسول الله ﷺ يقول «يخرج قوم من أمتي يسيئون الأعمال يقرءون القرآن لا يجاوز حناجرهم - قال يزيد لأعله إلا قال - يحقر أحدكم علمه مع علمهم يقتلون أهل الإسلام فاذا خرجوا فاقتلوهم ، ثم إذا خرجوا فاقتلوهم ثم إذا خرجوا فاقتلوهم فطوبى لمن قتلهم وطوبى لمن قتلوه ، كلما طلع منهم قرن قطعه الله» فردد ذلك رسول الله صلى الله عليه وسلم عشرين مرة أو أكثر وأنا أسمع وقال الحافظ أبو بكر البيهقي حدثنا أبو الحسن بن الفضل أخبرنا عبد الله بن جعفر حدثنا يعقوب بن سفيان حدثنا أبو النضر إسحاق بن إبراهيم بن يزيد وهشام بن عمار الدمشقيان قالا حدثنا يحيى بن حمزة حدثنا الأوزاعي عن نافع ، وقال أبو النضر عن نافع عن عبد الله بن عمر أن رسول الله ﷺ قال «سهاجر أهل الأرض هجرة بعد هجرة إلى مهاجر إبراهيم حتى لا يبقى إلا شرار أهلها تلفظهم الأرضون وتقذرم روح الرحمن ؟ وتحشرهم النار مع القردة والحنازير تبيت معهم حيث باتوا ، وتقبل معهم حيث قالوا لها ما سقط منهم» غريب من حديث نافع والظاهر أن الأوزاعي قد رواه عن شيخه من الضعفاء والله أعلم . وروايته من حديث

(١) يابن بأمله ، ولعله سقط من السند رجل من الرواة صحروه .

عبد الله بن عمرو بن العاص أقرب إلى الحفظ . وقوله تعالى (ووهبنا له إسحاق ويعقوب) كقوله (فلما اعزتهم وما يعبدون من دون الله ، وهبنا له إسحاق ويعقوب وكلا جعلنا نبيا) أى أنه لما فارق قومه أقر الله عينه بوجود ولد صالح نبي وولد له ولد صالح نبي في حياة جده وكذلك قال تعالى (ووهبنا له إسحاق ويعقوب نافلة) أى زيادة كما قال تعالى (فبشرناها بإسحاق ومن وراء إسحاق يعقوب) أى يولد لهذا الولد ولد في حياتكما تقربه أعينكما وكون يعقوب ولد لإسحاق نص عليه القرآن وثبتت به السنه النبوية قال الله تعالى (أم كنتم شهداء إذ حضر يعقوب الموت إذ قال لبنيه ما تعبدون من بعدي ؟ قالوا نعبد إلهك وإله آبائك إبراهيم وإسماعيل وإسحاق إلها واحدا) الآية وفي الصحيحين « إن الكريم ابن الكريم ابن الكريم يوسف بن يعقوب بن إسحاق بن إبراهيم عليهم الصلاة والسلام » فاما ما رواه العوفي عن ابن عباس في قوله (ووهبنا له إسحاق ويعقوب) قال هما ولدا إبراهيم فبعناه أن ولد الولد بمنزلة الولد فان هذا الأمر لا يكاد يخفى على من هودون ابن عباس . ورواه تعالى (وجعلنا في ذريته النبوة والكتاب) هذه خلعة سنية عظيمة مع اتخاذ الله إياه خليلا وجعله للناس إماما أن جعل في ذريته النبوة والكتاب فلم يوجد نبي بعد إبراهيم عليه السلام إلا وهو من سلته فجميع أنبياء بني إسرائيل من سلالة يعقوب بن إسحاق بن إبراهيم حتى كان آخرهم عيسى بن مريم ققام في ملتهم مبشرا بالنبي العربي القرشي الهاشمي خاتم الرسل على الإطلاق ، وسيد ولد آدم في الدنيا والآخرة . الذي اصطفاه الله من صميم العرب العرباء من سلالة إسماعيل بن إبراهيم عليهما السلام ، ولم يوجد نبي من سلالة إسماعيل سواه عليه أفضل الصلاة والسلام . وقوله (وآتيناه أجره في الدنيا وإنه في الآخرة لمن الصالحين) أى جمع الله له بين سعادة الدنيا الموصولة بسعادة الآخرة فكان له في الدنيا الرزق الواسع الهني والمنزل الرحب ، والمورد العزب ، والزوجة الحسنة الصالحة ، والثناء الجميل ، والذكر الحسن وكل أحد يحبه ويتولاه كما قال ابن عباس ومجاهد وقتادة وغيرهم مع القيام بطاعة الله من جميع الوجوه كما قال تعالى (وإبراهيم الذي وفى) أى قام بجميع ما أمر به وكمل طاعة ربه ولهذا قال تعالى (وآتيناه أجره في الدنيا وإنه في الآخرة لمن الصالحين) وكما قال تعالى (إن إبراهيم كان أمة قانتا لله حنيفا ولم يك من المشركين - إلى قوله - وإنه في الآخرة لمن الصالحين)

﴿ وَلَوْطًا إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِ إِنَّكُمْ لَأْتُونَ الْفُجُورَ مَا سَبَقَكُمْ بِهَا مِنْ أَحَدٍ مِنَ الْعَالَمِينَ * أُنْتُمْ لَأْتُونَ الرَّجَالَ وَتَقْطَعُونَ السَّبِيلَ وَتَأْتُونَ فِي نَادِيكُمُ الْمُنْكَرَ فَمَا كَانَ جَوَابَ قَوْمِهِ إِلَّا أَنْ قَالُوا ائْتِنَا بِعَذَابِ اللَّهِ إِنْ كُنْتُمْ مِنَ الصَّادِقِينَ * قَالَ رَبِّ أَنْصُرْنِي عَلَى الْقَوْمِ الْمُفْسِدِينَ ﴾

يقول تعالى مخبرا عن نبيه لوط عليه السلام أنه أنكر على قومه سوء صنيعهم وما كانوا يفعلونه من قبيح الأعمال في إتيانهم الله كران من العالمين ولم يسبقهم إلى هذه الفعلة أحد من بني آدم قبلهم وكانوا مع هذا يكفرون بالله ويكذبون رسوله ويخالفون ويقطعون السبيل أى يقفون في طريق الناس يقتلونهم ويأخذون أموالهم (وتأتون في ناديكم المنكر) أى يفعلون مالا يليق من الأقوال والأفعال في مجالسهم التي يجتمعون فيها لا ينكر بعضهم على بعض شيئا من ذلك فمن قائل كانوا يأتون بعضهم بعضا في اللأ قاله مجاهد ، ومن قائل كانوا يتضارطون ويتضاحكون قالته عائشة رضى الله عنها والقاسم ، ومن قائل كانوا يناطحون بين الكباش ويناقرون بين الديوك وكل ذلك كان يصدر عنهم وكانوا شرا من ذلك ، وقال الإمام أحمد حدثنا حماد بن أسامة أخبرني حاتم بن أبي صغيرة حدثنا سمالك بن حرب عن أبي صالح مولى أم هانئ عن أم هانئ قالت : سألت رسول الله صلى الله عليه وسلم عن قوله تعالى (وتأتون في ناديكم المنكر) قال « يحذفون أهل الطريق ويسخرون منهم وذلك المنكر الذي كانوا يأتونه » ورواه الترمذي وابن جرير وابن أبي حاتم من حديث أبي أسامة حماد بن رسامة عن أبي يونس القشيري عن حاتم بن أبي

صغيرة به . ثم قال الترمذى هذا حديث حسن لا نعرفه إلا من حديث حاتم بن أبي صغيرة عن ممالك ، وقال ابن أبي حاتم حدثنا الحسن بن عرفة حدثنا محمد بن كثير عن عمرو بن قيس عن الحكم عن مجاهد (وتأتون في ناديكم للنكر) قال الصغير ولعب الحمام والجلاهيق والسؤال في المجلس وحل أزرار القباء ، وقوله تعالى (فما كان جواب قومه إلا أن قال اتنا بعذاب الله إن كنت من الصادقين) وهذا من كفرهم وإستهزائهم وعنادهم ولهذا استنصر عليهم نبي الله فقال (رب انصرني على القوم المفسدين)

﴿ وَلَمَّا جَاءَتْ رُسُلُنَا إِبْرَاهِيمَ بِالْبُشْرَى قَالُوا إِنَّا مُهْلِكُوا أَهْلَ هَذِهِ الْقَرْيَةِ إِنِ أَهْلُهَا كَانُوا ظَالِمِينَ * قَالَ إِن فِيهَا لُوطًا قَالُوا نَحْنُ أَعْلَمُ بِمَنْ فِيهَا لَنَنْجِيَنَّهُ وَأَهْلَهُ إِلَّا أُمَّرَأَتَهُ كَانَتْ مِنَ الْغَابِرِينَ * وَلَمَّا أَنْ جَاءَتْ رُسُلُنَا لُوطًا سِيءَ بِهِمْ وَضَاقَ بِهِمْ ذَرْعًا وَقَالُوا لَا تَخَفْ وَلَا تَحْزَنْ إِنَّا مُنْجِيُكَ وَأَهْلَكَ إِلَّا أُمَّرَأَتَكَ كَانَتْ مِنَ الْغَابِرِينَ * إِنَّا مُنْزِلُونَ عَلَى أَهْلِ هَذِهِ الْقَرْيَةِ رِجْزًا مِنَ السَّمَاءِ بِمَا كَانُوا يَفْسُقُونَ * وَلَقَدْ تَرَكْنَا مِنْهَا آيَةً بَيِّنَةً لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ ﴾

لما استنصر لوط عليه السلام بالله عز وجل عليهم بعث الله لنصرته ملائكة فرأى إبراهيم عليه السلام في هيئة أضياف فجاءهم بما ينبغي للضيف فلما رأى إبراهيم أنه لا همة لهم إلى الطعام نكروهم وأوجس منهم خيفة فشرعوا يؤانسونه ويبشرونه بوجود ولد صالح من امرأته سارة وكانت حاضرة فتعجبت من ذلك كما تقدم بيانه في سورة هود والحجر فلما جاءت إبراهيم بالبشرى وأخبروه بأنهم أرسلوا لهلاك قوم لوط أخذ يدافع لهم لينظرون لعل الله أن يهديهم ، ولما قالوا إنا مهلكو أهل هذه القرية (قال إن فيها لوطا ، قالوا نحن أعلم بمن فيها لننجيه وأهله إلا امرأته كانت من الغابرين) أى من المهالكين لأنها كانت تماثلهم على كفرهم وبغيتهم ودرهم ثم ساروا من عنده فدخلوا على لوط في صورة شبان حسان فلما رأهم كذلك (ساء بهم وضاق بهم ذرعا) أى اغتم بأمرهم إن هو أضافهم خاف عليهم من قومه وإن لم يضيفهم خشى عليهم منهم ولم يعلم بأمرهم في الساعة الراهنة (قالوا لا تخف ولا تحزن إنا منجوك وأهلك إلا امرأتك كانت من الغابرين * إنا منزلون على أهل هذه القرية رجزاً من السماء بما كانوا يفسقون) وذلك أن جبريل عليه السلام اقتلع قراهم من قرار الأرض ثم رفعها إلى عنان السماء ثم قلبها عليهم ، وأرسل الله عليهم حجارة من سجيل منضود مسومة عند ربك وما هي من الظالمين ببيعد ، وجعل الله مكانها بحيرة خبيثة منتنة وجعلهم عبرة إلى يوم التناد ، وهم من أشد الناس عذاباً يوم المعاد . ولهذا قال تعالى (ولقد تركنا منها آية بيينة) أى واضحة (لقوم يعقلون) كما قال تعالى (وإنكم لترون عليهم مصبحين وبالليل أفلا تعقلون)

﴿ وَإِلَى مَدْيَنَ أَخَاهُمْ شُعَيْبًا قَالَتْ يَقَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ وَارْجُوا الْيَوْمَ الْآخِرَ وَلَا تَعْسُوا فِي الْأَرْضِ مُفْسِدِينَ فَكَذَّبُوهُ فَأَخَذَتْهُمُ الرَّجْفَةُ فَأَصْبَحُوا فِي دَارِهِمْ جِثِيمِينَ ﴾

يخبر تعالى عن عبده ورسوله شعيب عليه السلام أنه أنذر قومه أهل مدين فأمرهم بعبادة الله وحده لا شريك له وأن يخافوا بأس الله وتقمته وسلطوته يوم القيامة فقال (يا قوم اعبدوا الله وارجوا اليوم الآخر) قال ابن جرير قال بعضهم معناه واخشوا اليوم الآخر وهذا كقوله تعالى (لمن كان يرجو الله واليوم الآخر) وقوله (ولا تعسوا في الأرض مفسدين) نهاهم عن العيش في الأرض بالفساد وهو السعى فيها والبغى على أهلها وذلك أنهم كانوا ينقصون السكيات والليزان ويقطعون الطريق على الناس هذا مع كفرهم بالله ورسوله فأهلكهم الله برجفة عظيمة زلزلت عليهم بلادهم وصيحة أخرجت القلوب من حناجرها وعذاب يوم

الطلة الذي أزهق الأرواح من مستقرها إنه كان عذاب يوم عظيم ، وقد تقدمت قصتهم مبسوطه في سورة الأعراف وهود والشعراء ، وقوله (فأصبحوا في دارهم جاعلين) قال قتادة ميتين ، وقال غيره قد أتى بعضهم على بعض

﴿ وَعَادًا وَثَمُودًا وَقَدْ تَبَيَّنَ لَكُمْ مِنْ مَسْكِنِهِمْ وَزَيْنَ لَهُمُ الشَّيْطَانُ أَعْمَلْتُمْ قَسَدَهُمْ عَنِ السَّبِيلِ وَكَانُوا مُسْتَبْصِرِينَ * وَقُرُونِ وَفِرْعَوْنَ وَهَمَانَ وَلَقَدْ جَاءَهُمْ مُوسَىٰ بِالْبَيِّنَاتِ فَاسْتَكْبَرُوا فِي الْأَرْضِ وَمَا كَانُوا سَابِقِينَ * فَكَلَّا أَخَذْنَا بِذَنبِهِ فَمِنْهُمْ مَنْ أَرْسَلْنَا عَلَيْهِ حَاصِبًا وَمِنْهُمْ مَنْ أَخَذَتْهُ الصَّيْحَةُ وَمِنْهُمْ مَنْ خَسَفْنَا بِهِ الْأَرْضَ وَمِنْهُمْ مَنْ أَغْرَقْنَا وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيظْلِمَهُمْ وَلَكِنْ كَانُوا أَنْفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ ﴾

يخبر تعالى عن هؤلاء الأمم الكذبة للرسول كيف أبادهم وتووع في عذابهم وأخذهم بالانتقام منهم فعاد قوم هود عليه السلام كانوا يسكنون الأحقاف وهي قرية من حضرموت بلاد اليمن ، وثمود قوم صالح كانوا يسكنون الحجر قريبا من وادي القرى . وكانت العرب تعرف مساكنهما جيدا وتعر عليها كثيرا ، وقارون صاحب الأموال الجزيلة ومفاتيح الكنوز الثقيلة ، وفرعون ملك مصر في زمان موسى ووزيره هامان القبطيان الكافران بالله تعالى وبرسوله ﷺ (فكلأ أخذنا بذنبه) أي كانت عقوبته بما يناسبه (فمنهم من أرسلنا عليه حاصبا) وهم عاد وذلك أنهم قالوا من أشد منا قوة فجاءتهم ريح صرصر باردة شديدة البرد عاتية شديدة الهبوب جدا تحمل عليهم حصباء الأرض فتلقها عليهم وتقتلعهم من الأرض فترفع الرجل منهم من الأرض إلى عنان السماء ثم تنكسه على أم رأسه فتشده فيبقى بدنا بلا رأس كأنهم أعجاز نخل منقعر (ومنهم من أخذته الصيحة) وهم ثمود قامت عليهم الحجة وظهرت لهم الدلالة من تلك الناقة التي انفلقت عنها الصخرة مثل ما سألتوا سواء بسواء ومع هذا ما آمنوا بل استمروا على طغيانهم وكفرهم وتهددوا نبي الله صالحا ومن آمن معه وتوعدوهم بأن يخرجوهم ويرجموهم فجاءتهم صيحة أخذت الأصوات منهم والحركات (ومنهم من خسفنا به الأرض) وهو قارون الذي طغى وبني وعتا وعصى الرب الأعلى ومشى في الأرض مرحا وفرح ومرح وتاه بنفسه واعتقد أنه أفضل من غيره واختال في مشيته فخسف الله به وبداره الأرض فهو يتجلجل فيها إلى يوم القيامة (ومنهم من أغرقنا) وهو فرعون ووزيره هامان وجنودهما عن آخرهم أغرقوا في صيحة واحدة فلم ينج منهم نخب (وما كان الله ليظلمهم) أي فيما فعل بهم (ولكن كانوا أنفسهم يظلمون) أي إنما فعل ذلك بهم جزاء وفاقا بما كسبت أيديهم وهذا الذي ذكرناه ظاهر سياق الآية وهو من باب اللف والنشر وهو أنه ذكر الأمم الكذبة ثم قال (فكلأ أخذنا بذنبه) أي من هؤلاء المذكورين وإنما نهت على هذا لأنه قد روى ابن جريج قال : قال ابن عباس في قوله (فمنهم من أرسلنا عليه حاصبا) قال قوم لوط (ومنهم من أغرقنا) قال قوم نوح وهذا منقطع عن ابن عباس فإن ابن جريج لم يدركه . ثم قد ذكر الله في هذه السورة إهلاك قوم نوح بالطوفان ، وقوم لوط بانزال الرجز من السماء وأطال السياق والفصل بين ذلك وبين هذا السياق ، وقال قتادة (فمنهم من أرسلنا عليه حاصبا) قال قوم لوط (ومنهم من أخذته الصيحة) قوم شعيب وهذا بعيد أيضا لما تقدم والله أعلم

﴿ مَثَلُ الَّذِينَ أَخَذُوا مِنَ دُونِ اللَّهِ أَوْلِيَاءَ كَمَثَلِ الْعَنكَبُوتِ اتَّخَذَتْ بَيْتًا وَإِنَّ أَوْهَنَ الْبُيُوتِ لَبَيْتُ الْعَنكَبُوتِ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ * إِنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ مَا يُدْعُونَ مِنْ دُونِهِ مِنْ شَيْءٍ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ * وَتِلْكَ الْأَمْثَلُ نَضْرِبُهَا لِلنَّاسِ وَمَا يُعْقِلُهَا إِلَّا الْعَالِمُونَ ﴾

هذا مثل ضرب به الله تعالى للشركين في اتخاذهم آلهة من دون الله يرجون نصرهم وورثتهم ويتمسكون بهم في الشدائد ، فهم في ذلك

كسبت العنكبوت في ضعفه ووهنه فليس في أيدي هؤلاء من آلتهم إلا كمن يتمسك ببيت العنكبوت فإنه لا يجدي عنه شيء فلو علموا هذا الحال لما اتخذوا من دون الله أولياء وهذا بخلاف المسلم المؤمن قلبه لله وهو مع ذلك يحسن العمل في اتباع الشرع فإنه متمسك بالعروة الوثقى لا انفصام لها لقوتها وثباتها ، ثم قال تعالى متوعدا لمن عبد غيره وأشرك به إنه تعالى يعلم ما هم عليه من الأعمال ويعلم ما يشركون به من الأنداد وسيجزئهم وصفهم إنه حكيم عليم ، ثم قال تعالى (وتلك الأمثال نضربها للناس وما يعقلها إلا العالمون) أي وما يفهمها ويتدبرها إلا الراسخون في العلم المتضلعون منه . قال الإمام أحمد حدثنا إسحاق بن عيسى حدثني ابن لهيعة عن أبي قبيل عن عمرو بن العاص رضي الله عنه قال : عقلت عن رسول الله صلى الله عليه وسلم ألف مثل ، وهذه منقبة عظيمة لعمرو بن العاص رضي الله عنه حيث يقول الله تعالى (وتلك الأمثال نضربها للناس وما يعقلها إلا العالمون) ، وقال ابن أبي حاتم حدثنا علي بن الحسين ثنا أحمد بن عبد الرحمن حدثنا أبي حدثنا ابن سنان عن عمرو بن مرة قال : ما مررت بآية من كتاب الله لا أعرفها إلا أحزنتني لأني سمعت الله تعالى يقول (وتلك الأمثال نضربها للناس وما يعقلها إلا العالمون)

﴿ خَلَقَ اللَّهُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ بِالْحَقِّ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً لِّلْمُؤْمِنِينَ * أَتْلُ مَا أُوْحِيَ إِلَيْكَ مِنَ الْكِتَابِ وَأَقِمِ الصَّلَاةَ إِنَّ الصَّلَاةَ تَنْهَىٰ عَنِ الْفَحْشَاءِ وَالْمُنْكَرِ وَلَذِكْرُ اللَّهِ أَكْبَرُ وَاللَّهُ يَعْلَمُ مَا تَصْنَعُونَ ﴾

يقول تعالى مخبرا عن قدرته العظيمة أنه خلق السموات والأرض بالحق يعني لا على وجه العبث واللعب (لتجزى كل نفس بما تسعى) (ليجزى الذين أساءوا بما عملوا ويجزى الذين أحسنوا بالحسنى) وقوله تعالى (إن في ذلك لآية للمؤمنين) أي لدلالة واضحة على أنه تعالى المتفرد بالخلق والتدبير والإلهية ، ثم قال تعالى آمرا رسوله والمؤمنين بتلاوة القرآن وهو قراءته وإبلاغه للناس (وأقم الصلاة إن الصلاة تنهى عن الفحشاء والمنكر ولذكر الله أكبر) يعني أن الصلاة تشتمل على شيئين على ترك الفواحش والمنكرات أي مواظبتها تحمل على ترك ذلك (وقد جاء في الحديث من رواية عمران وابن عباس مرفوعا « من لم تنه صلواته عن الفحشاء والمنكر لم تزد من الله إلا بعدا »

﴿ ذكر الآثار الواردة في ذلك ﴾

قال ابن أبي حاتم حدثنا محمد بن هارون الخرمي الفلاس حدثنا عبد الرحمن بن نافع أبو زياد حدثنا عمر ابن أبي عثمان حدثنا الحسن بن عمران بن حصين قال سئل النبي صلى الله عليه وسلم عن قول الله (إن الصلاة تنهى عن الفحشاء والمنكر) قال « من لم تنه صلواته عن الفحشاء والمنكر فلا صلاة له » وحدثنا طي بن الحسين حدثنا يحيى بن أبي طلحة اليربوعي حدثنا أبو معاوية عن ليث عن طاوس عن ابن عباس قال : قال رسول الله ﷺ « من لم تنه صلواته عن الفحشاء والمنكر لم يزد بها من الله إلا بعدا » ورواه الطبراني من حديث أبي معاوية . وقال ابن جرير حدثنا القاسم حدثنا الحسين حدثنا خالد بن عبد الله عن العلاء بن السيب عن ذكره عن ابن عباس في قوله (إن الصلاة تنهى عن الفحشاء والمنكر) قال فمن لم تأمره صلواته بالمعروف وتنه عن المنكر لم يزد بصلواته من الله إلا بعدا . فهذا موقوف قال ابن جرير وحدثنا القاسم حدثنا الحسين حدثنا علي بن هاشم بن البريد عن جوير عن الضحاك عن ابن مسعود عن النبي ﷺ أنه قال « لا صلاة لمن لم يطع الصلاة » وطاعة الصلاة أن تنه عن الفحشاء والمنكر . قال : قال سفيان (قالوا يا شعيب أصلاتك تأمرك) قال : فقال سفيان إبي والله تأمره وتنه

وقال ابن أبي حاتم حدثنا أبو سعيد الأشج حدثنا أبو خالد عن جوير عن الضحاك عن عبد الله قال : قال رسول الله ﷺ « لا صلاة لمن لم يطع الصلاة وطاعة الصلاة أن تنه عن الفحشاء والمنكر » والموقوف أصح كما رواه الأعمش عن مالك بن الحارث عن عبد الرحمن بن يزيد قال قيل لعبد الله إن فلانا يطيل الصلاة قال إن الصلاة لا تنفع إلا من أطاعها . وقال ابن جرير حدثنا علي حدثنا إسماعيل بن مسلم عن الحسن قال : قال رسول الله

صلى الله عليه وسلم « من صلى صلاة لم تنهه عن الفحشاء والنكر لم يزد بها من الله إلا بعداً » والأصح في هذا كله الموقوفات عن ابن مسعود وابن عباس والحسن وقتادة والأعمش وغيرهم والله أعلم . وقال الحافظ أبو بكر البزار حدثنا يوسف ابن موسى أنبأنا جرير - يعني ابن عبد الحميد - عن الأعمش عن أبي صالح قال أراه عن جابر شك الأعمش قال : قال رجل للنبي صلى الله عليه وسلم إن فلانا يصلي بالليل فإذا أصبح سرق قال « سينهاه ما تقول » وحدثنا محمد بن موسى الجرشى أخبرنا زياد بن عبد الله عن الأعمش عن أبي صالح عن جابر عن النبي صلى الله عليه وسلم بنحوه ولم يشك ثم قال : وهذا الحديث قد رواه عن الأعمش غير واحد واختلفوا في إسناده فرواه غير واحد عن الأعمش عن أبي صالح عن أبي هريرة أو غيره وقال قيس عن الأعمش عن أبي سفيان عن جابر قال جرير وزياد عن عبد الله عن الأعمش عن أبي صالح عن جابر ، وقال الإمام أحمد حدثنا وكيع أخبرنا الأعمش قال أرى أبا صالح عن أبي هريرة قال جاء رجل إلى النبي صلى الله عليه وسلم فقال إن فلانا يصلي بالليل فإذا أصبح سرق فقال « إنه سينهاه ما تقول » . وتشتمل الصلاة أيضاً على ذكر الله تعالى وهو المطلوب الأكبر ولهذا قال تعالى (ولدك الله أكبر) أى أعظم من الأول (والله يعلم ما تصنعون) أى يعلم جميع أعمالكم وأقوالكم . وقال أبو العالية في قوله تعالى (إن الصلاة تنهى عن الفحشاء والنكر) قال إن الصلاة فيها ثلاث خصال فكل صلاة لا يكون فيها شيء من هذه الخلال فليست بصلاة : الإخلاص والحشية وذكر الله فالإخلاص يأمره بالمعروف والحشية تنهاه عن المنكر وذكر الله القرآن يأمره وينهاه . وقال ابن عون الأنصارى إذا كنت في صلاة فأنت في معروف وقد حجتك عن الفحشاء والمنكر والذي أتت فيه من ذكر الله أكبر وقال حماد بن أبي سليمان (إن الصلاة تنهى عن الفحشاء والمنكر) يعنى مادمت فيها ، وقال علي بن أبي طلحة عن ابن عباس في قوله تعالى (ولدك الله أكبر) يقول ولدك الله لعباده أكبر إذا ذكروه من ذكرهم إياه وكذا روى غير واحد عن ابن عباس وبه قال مجاهد وغيره ، وقال ابن أبي حاتم حدثنا أبو سعيد الأشج حدثنا أبو خالد الأحمر عن داود بن أبي هند عن رجل عن ابن عباس (ولدك الله أكبر) قال ذكر الله عند طعامك وعند منامك ، قلت فان صاحباً لي في المنزل يقول غير الذى تقول ، قال وأى شيء يقول ؟ قلت قال يقول الله تعالى (فاذكروني أذكركم) فلذلك الله إياناً أكبر من ذكرنا إياه قال : صدق قال وحدثنا أبي حدثنا النخعي حدثنا إسماعيل عن خالد عن عكرمة عن ابن عباس في قوله تعالى (ولدك الله أكبر) قال لها وجهان قال ذكر الله عند ما حرمه قال وذكر الله إياكم أعظم من ذكركم إياه قال ابن جرير حدثني يعقوب بن إبراهيم أخبرنا هشيم أخبرنا عطاء بن السائب عن عبد الله بن ربيعة قال : قال لي ابن عباس هل تدري ما قوله تعالى (ولدك الله أكبر) ؟ قال : قلت نعم ، قال : فما هو ؟ قلت التسييح والتحميد والتكبير في الصلاة وقراءة القرآن ونحو ذلك . قال : لقد قلت قولاً عجبياً وما هو كذلك ولكنه إنما يقول ذكر الله إياكم عند ما أمر به أو نهى عنه إذا ذكرتموه أكبر من ذكركم إياه ، وقد روى هذا من غير وجه عن ابن عباس وروى أيضاً عن ابن مسعود وأبي الدرداء وسلمان الفارسي وغيرهم واختاره ابن جرير

﴿ وَلَا تُجَادِلُوا أَهْلَ الْكِتَابِ إِلَّا بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ إِلَّا الَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْهُمْ وَقُولُوا ءَامَنَّا بِالَّذِي أُنزِلَ إِلَيْنَا وَأَنْزَلَ إِلَيْكُمْ وَإِلَهُنَا وَإِلَهُكُمْ وَاحِدٌ وَنَحْنُ لَهُ مُسْلِمُونَ ﴾

قال قتادة وغير واحد : هذه الآية منسوخة بآية السيف ولم يبق معهم مجادلة وإنما هو الإسلام أو الجزية أو السيف وقال آخرون بل هي باقية محكمة لمن أراد الاستبصار منهم في الدين فيجادل بالتي هي أحسن ليكون أنجع فيه كما قال تعالى (ادع إلى سبيل ربك بالحكمة والموعظة الحسنة) الآية وقال تعالى لموسى وهارون حين بعثهما إلى فرعون (فقولا له قولاً لينا لعله يتذكر أو يخشى) وهذا القول اختاره ابن جرير وحكاه عن ابن زيد . وقوله تعالى (إلا الذين ظلموا منهم) أى حادوا عن وجه الحق وعموا عن واضح الحجة وعاندوا وكابروا فحينئذ ينتقل من الجدل إلى الجلال

ويقاتلون بما يمنهم ويردعهم قال الله عز وجل (لقد أرسلنا رسلنا بالبينات وأنزلنا معهم الكتاب والميزان ليقوم الناس بالقسط وأنزلنا الحديد فيه بأس شديد - إلى قوله - إن الله قوي عزيز) قال جابر : أمرنا من خالف كتاب الله أن نضرب به بالسيف، قال مجاهد (إلا الذين ظلموا منهم) يعنى أهل الحرب ومن امتنع منهم من أداء الجزية . وقوله تعالى (وقولوا آمنا بالذى أنزل إلينا وأنزل إليكم) يعنى إذا أخبروا بما لا نعلم صدقه ولا كذبه فهذا لا تقدم على تكذيبه لأنه قد يكون حقا ولا تصديقه فلعله أن يكون باطلا ولكن تؤمن به إيمانا محملا معلقا على شرط وهو أن يكون منزلا لا مبدلا ولا مؤولا . قال البخارى رحمه الله حدثنا محمد بن بشار حدثنا عثمان بن عمر أخبرنا على بن المبارك عن يحيى بن أبى كثير عن أبى سلمة عن أبى هريرة رضى الله عنه قال : كان أهل الكتاب يقرءون التوراة بالعبرانية ويفسرونها بالعربية لأهل الإسلام فقال رسول الله ﷺ « لا تصدقوا أهل الكتاب ولا تكذبوهم وقولوا آمنا بالذى أنزل إلينا وما أنزل إليكم وإلها وإلهكم واحد ونحن له مسلمون » وهذا الحديث تفرد به البخارى . وقال الإمام أحمد حدثنا عثمان بن عمرو وأخبرنا يونس عن الزهري أخبرنى ابن أبى نملة أن أبا نملة الأنصارى أخبره أنه بينا هو جالس عند رسول الله صلى الله عليه وسلم جاءه رجل من اليهود فقال يا محمد هل تتكلم هذه الجنابة فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم « الله أعلم » قال اليهودى أنا أشهد أنها تتكلم فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم « إذا حدثكم أهل الكتاب فلا تصدقوهم ولا تكذبوهم وقولوا آمنا بالله وكتبه ورسله فان كان حقا لم تكذبوهم وإن كان باطلا لم تصدقوهم » (قلت) وأبو نملة هذا هو عمارة وقيل عمار وقيل عمرو بن معاذ بن زرارة الأنصارى رضى الله عنه ثم ليعلم أن أكثر ما يتحدثون به غالبه كذب وهتان لأنه قد دخله تحريف وتبديل وتغيير وتأويل وما أقل الصدق فيه ثم ما أقل فائدة كثير منه لو كان صحيحا . قال ابن جرير حدثنا ابن بشار حدثنا أبو عاصم أخبرنا سفيان عن سليمان ابن عامر عن عمارة بن عمير عن حريث بن ظهير عن عبد الله - هو ابن مسعود - قال لا تسألوا أهل الكتاب عن شىء فانهم لن يهدوكم وقد ضلوا ، إما أن تكذبوا بحق أو تصدقوا بباطل فانه ليس أحد من أهل الكتاب إلا وفى قلبه تالية تدعوه إلى دينه كتالية المال ، وقال البخارى حدثنا موسى بن إسماعيل حدثنا إبراهيم بن سعد أخبرنا ابن شهاب عن عبد الله بن عبد الله عن ابن عباس قال كيف تسألون أهل الكتاب عن شىء وكتابكم الذى أنزل إليكم على رسول الله صلى الله عليه وسلم أحدث تقرءونه محضاً لم يشب وقد حدثكم أن أهل الكتاب بدلوا وغيروا وكتبوا بأيديهم الكتاب وقالوا هو من عند الله ليشتروا به ثمنا قليلا ؟ ألا ينهاكم ما جاءكم من العلم عن مسألتهم ؟ لا والله ما رأينا منهم رجلا يسألكم عن الذى أنزل عليكم ، وقال البخارى وقال أبو اليمان أخبرنا شعيب عن الزهري أخبرنى حميد ابن عبد الرحمن أنه سمع معاوية يحدث رهطاً من قريش بالمدينة وذكر كعب الأجار فقال إن كان من أصدق هؤلاء الحديثين الذين يحدثون عن أهل الكتاب وإن كنا مع ذلك لنبلو عليه الكذب (قلت) معناه أنه يقع منه الكذب لغة من غير قصد لأنه يحدث عن صحف هو يحسن بها الظن وفيها أشياء موضوعة ومكذوبة لأنهم لم يكن فى ملتهم حفاظ متقنون كهذه الأمة العظيمة ومع ذلك وقرب العهد وضعت أحاديث كثيرة فى هذه الأمة لا يعلمها إلا الله عز وجل ومن منحه الله تعالى علما بذلك كل بحسبه وثقه الحمد والمنة

﴿ وَكَذَلِكَ أَنْزَلْنَا إِلَيْكَ الْكِتَابَ فَالَّذِينَ ءَاتَيْنَهُمُ الْكِتَابَ يُؤْمِنُونَ بِهِ وَمِنْ هَؤُلَاءِ مَنْ يُؤْمِنُ بِهِ وَمَا يَجْحَدُ بِآيَاتِنَا إِلَّا الْكَافِرُونَ * وَمَا كُنْتَ تَتْلُوا مِنْ قَبْلِهِ مِنْ كِتَابٍ وَلَا تَخُطُّهُ بِيَمِينِكَ إِذَا لَأْرْتَأْتِ الْمُبْطِلُونَ * بَلْ هُوَ آيَةٌ بَيِّنَةٌ فِي صُدُورِ الَّذِينَ أُوْتُوا الْعِلْمَ وَمَا يَجْحَدُ بِآيَاتِنَا إِلَّا الظَّالِمُونَ ﴾

قال ابن جرير يقول الله تعالى كما أنزلنا الكتب على من قبلك يا محمد من الرسل كذلك أنزلنا إليك هذا الكتاب، وهذا الذى قاله حسن ومناسبتة وارتباطه جيد؛ وقوله تعالى (فالذين آتيناهم الكتاب يؤمنون به) أى الذين أخذوه

فلاوه حق تلاوته من أجازهم العلماء الأذكياء كعبد الله بن سلام وسلمان الفارسي وأشباههما ، وقوله تعالى (ومن هؤلاء من يؤمن به) يعني العرب من قريش وغيرهم (وما يجحد بآياتنا إلا الكافرون) أي ما يكذب بها ويحجدها إلا من يستر الحق بالباطل ، ويغطي ضوء الشمس بالوصلات وهيهات ، ثم قال تعالى (وما كنت تتلو من قبله من كتاب ولا تخطه يمينك) أي قد لبثت في قومك يا محمد من قبل أن تأتي بهذا القرآن عمرا لا تقرأ كتابا ولا تحسن الكتابة بل كل أحد من قومك وغيرهم يعرف أنك رجل أي لا تقرأ ولا تكتب وهكذا صفة في الكتب المتقدمة كما قال تعالى (الذين يتبعون الرسول النبي الأمي الذي يجدهونه مكتوبا عندهم في التوراة والإنجيل يأمرهم بالمعروف وينهاهم عن المنكر) الآية وهكذا كان رسول الله صلى الله عليه وسلم دائما إلى يوم الدين لا يحسن الكتابة ولا يخط سطرا ولا حرفا بيده بل كان له كتاب يكتبون بين يده الوحي والرسائل إلى الأقاليم . ومن زعم من متأخري الفقهاء كالقاضي أبي الوليد الباجي ومن تابعه أنه عليه السلام كتب يوم الحديبية : هذا ما قاضى عليه محمد ابن عبد الله . فأنما حمله على ذلك رواية في صحيح البخاري : ثم أخذ فكتب . وهذه محمولة على الرواية الأخرى : ثم أمر فكتب . ولهذا اشتد النكير من فقهاء المشرق والمغرب على من قال بقول الباجي وتبرءوا منه وأنشدوا في ذلك أقوالا وخطبوا به في محافلهم : وإنما أراد الرجل - أعني الباجي - فيما يظهر عنه أنه كتب ذلك على وجه المعجزة لا أنه كان يحسن الكتابة كما قال صلى الله عليه وسلم إخباراً عن الدجال « مكتوب بين عينيه كافر » وفي رواية « ك ف ر » ، يقرأها كل مؤمن » وما أورده بعضهم من الحديث أنه لم يمض على الله عليه وسلم حتى تعلم الكتابة فضعيف لا أصل له ، قال الله تعالى (وما كنت تتلو) أي تقرأ (من قبله من كتاب) لتأكيد النفي ولا تخطه يمينك تأكيد أيضا وخرج مخرج الغالب كقوله تعالى (ولا طائر يطير بجناحيه) . وقوله تعالى (إذا لارتاب البطون) أي لو كنت تحسنها لارتاب بعض الجهلة من الناس فيقول إنما تعلم هذا من كتب قبله مأثورة عن الأنبياء مع أنهم قالوا ذلك مع علمهم بأنه أمي لا يحسن الكتابة (وقالوا أساطير الأولين اكتبها فهي تملى عليه بكرة وأصيلا) قال الله تعالى (قل أنزله الذي يعلم السر في السماوات والأرض) الآية وقال ههنا (بل هو آيات بينات في صدور الذين أوتوا العلم) أي هذا القرآن آيات بينة واضحة في الدلالة على الحق أمرا ونهيا وخبرا يحفظه العلماء يسره الله عليهم حفظا وتلاوة وتفسيرا كما قال تعالى (ولقد يسرنا القرآن للذكر فهل من مدكر) وقال رسول الله صلى الله عليه وسلم « ما من نبي إلا وقد أعطى ما آمن على مثله البشر ، وإنما كان الذي أوتيته وحياً أوحاه الله إلى فأرجو أن أكون أكثرهم تابعاً » وفي حديث عياض بن حماد في صحيح مسلم يقول الله تعالى « إني مبتليكم ومبتل بكم ومنزل عليك كتاباً لا يغسله الماء تقرؤه نائماً ويقظاناً » أي لو غسل الماء المحل المكتوب فيه لما احتجج إلى ذلك المحل لأنه قد جاء في الحديث الآخر « لو كان القرآن في إهاب ما أحرقت النار » ولأنه محفوظ في الصدور ميسر على الألسنة مهيم على القلوب معجز لفظاً ومعنى ولهذا جاء في الكتب المتقدمة في صفة هذه الأمة أناجيلهم في صدورهم ، واختار ابن جرير أن المعنى في قوله تعالى (بل هو آيات بينات في صدور الذين أوتوا العلم) بل العلم بأنك ما كنت تتلو من قبل هذا الكتاب كتاباً ولا تخطه يمينك آيات بينات في صدور الذين أوتوا العلم من أهل الكتاب ، ونقله عن قتادة وابن جريج وحكى الأول عن الحسن البصري فقط قلت وهو الذي رواه العوفي عن ابن عباس وقاله الضحاك وهو الأظهر والله أعلم ، وقوله تعالى (وما يجحد بآياتنا إلا الظالمون) أي ما يكذب بها ويحسها ويردها إلا الظالمون أي المعتدون الكابرون الذين يعلمون الحق ويحيدون عنه كما قال تعالى (إن الذين حقن عليهم كلمة ربك لا يؤمنون ولوجاءتهم كل آية حتى يروا العذاب الأليم)

﴿ وَقَالُوا لَوْلَا أَنْزَلَ عَلَيْهِ آيَاتٌ مِّن رَّبِّهِ قُلْ إِنَّمَا الْآيَاتُ عِندَ اللَّهِ وَإِنَّمَا أَنَا نَذِيرٌ مُّبِينٌ * أَوَلَمْ يَكُنْ لَهُمْ أَنَا أَنْزَلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ يُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ إِنْ فِي ذَلِكَ لَرِجْمَةٌ وَذِكْرَىٰ لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ * قُلْ كَفَىٰ بِاللَّهِ بَيْنِي

وَبَيْنَكُمْ شَهِيدًا يَعْلَمُ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَالَّذِينَ ءَامَنُوا بِالْبَاطِلِ وَكَفَرُوا بِاللَّهِ أُولَٰئِكَ هُمُ
الْخٰسِرُونَ ﴿١٠٠﴾

يقول تعالى مخبراً عن المشركين في تعنتهم وطلبهم آيات يعنون ترشدكم إلى أن عمداً رسول الله كما أتى صالح بناتقته قال الله تعالى (قل) يا محمد (إنما الآيات عند الله) أي إنما أمر ذلك إلى الله فإنه لو علم أنكم تهتدون لأجابكم إلى سؤالكم لأن هذا سهل عليه يسير لديه ، ولكنه يعلم منكم أنكم إنما قصدتم التعنت والامتحان فلا يجيبكم إلى ذلك كما قال تعالى (وما معنا أن نرسل بالآيات إلا أن كذب بها الأولون * وآتينا ثمود الناقة مبصرة فظلموا بها) وقوله (وإنما أنا نذير مبين) أي إنما بعثت نذيراً لكم بين النذارة فعلى أن أبلغكم رسالة الله تعالى (من يهد الله فهو المهتد ومن يضلل فلن تجد له ولياً مرشداً) وقال تعالى (ليس عليك هداهم ولكن الله يهدي من يشاء) ثم قال تعالى مبيناً كثرة جهلهم وسخافة عقولهم حيث طلبوا آيات تدلهم على صدق محمد ﷺ فيما جاءهم ، وقد جاءهم بالكتاب العزيز الذي لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه الذي هو أعظم من كل معجزة اذعجت الفصحاء والبلغاء عن معارضته بل عن معارضة عشر سور من مثله بل عن معارضة سورة منه فقال تعالى (أولم يكفهم أنا أنزلنا عليك الكتاب يتلى عليهم) أي أولم يكفهم آية أنا أنزلنا عليك الكتاب العظيم الذي فيه خبر ما قبلهم ونبأ ما بعدهم وحكم ما بينهم وأنت رجل أمي لا تقرأ ولا تكتب ولم تغالط أحداً من أهل الكتاب فجتهم بأخبار ما في الصحف الأولى بيان الصواب مما اختلفوا فيه وبالحق الواضح البين الجلي كما قال تعالى (أولم يكن لهم آية أن يعلمه علماء بني إسرائيل) وقال تعالى (وقالوا لولا أنزل عليه آية من ربه أولم تأتتهم بينة ما في الصحف الأولى) وقال الإمام أحمد حدثنا حجاج حدثنا ليث حدثني سعيد بن أبي سعيد عن أبيه عن أبي هريرة رضي الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ « مامن الأنبياء من نبي إلا قد أعطى من الآيات ما مثله آمن عليه البشر ، وإنما كان الذي أوتيته وحياً أوحاه الله إلى فأرجو أن أكون أكثرهم تابعاً يوم القيامة » أخرجه من حديث الليث . وقد قال الله تعالى (إن في ذلك لرحمة وذكري لقوم يؤمنون) أي إن في هذا القرآن لرحمة أي بياناً للحق وإزاحة للباطل وذكري بما فيه حلول النعمات ونزول العقاب بالمكذبين والعاصين لقوم يؤمنون ثم قال تعالى (قل كفى بالله بيني وبينكم شهيداً) أي هو أعلم بما تفيضون فيه من التكذيب ويعلم ما أقول لكم من اخباري عنه بأنه أرسلني فلو كنت كاذباً عليه لانتقم مني كما قال تعالى (ولو تقول علينا بعض الأقاويل لأخذنا منه باليمين ثم لقطعنا منه الوتين فما منكم من أحد عنه حاجزين) وإنما أنا صادق عليه فيما أخبرتكم به ولهذا أيدني بالمعجزات الواضحات والدلائل القاطعات (يعلم ما في السموات والأرض) أي لا تخفى عليه خافية (والذين آمنوا بالباطل وكفروا بالله أولئك هم الخاسرون) أي يوم القيامة سيجزيمهم على ما فعلوا ويقابلهم على ما صنعوا في تكذيبهم بالحق واتباعهم الباطل كذبوا برسول الله مع قيام الأدلة على صدقهم وآمنوا بالطواغيت والأوثان بلا دليل فسيجزيمهم على ذلك إنه حكيم عليم

﴿ وَيَسْتَعْجِلُونَكَ بِالْعَذَابِ وَلَوْ لَأَجَلَ مُّسَمًّى لَّجَاءَهُمُ الْعَذَابُ وَلَيَأْتِيَنَّهُمْ بَفْئَةٌ وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ *
يَسْتَعْجِلُونَكَ بِالْعَذَابِ وَإِنَّ جَهَنَّمَ لَمُحِيطَةٌ بِالْكَافِرِينَ * يَوْمَ يَنْشَهُمُ الْعَذَابُ مِنْ فَوْقِهِمْ وَمَنْ تَحْتِ أَرْجُلِهِمْ
وَيَقُولُ ذُقُوا مَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ ﴾

يقول تعالى مخبراً عن جهل المشركين في استعجالهم عذاب الله أن يقع بهم وبأس الله أن يحل عليهم كما قال تعالى (وإذ قالوا اللهم إن كان هذا هو الحق من عندك فأمطر علينا حجارة من السماء أو ائتنا بعذاب أليم) وقال ههنا (ويستعجلونك بالعذاب ولولا أجل مسمى لجاءهم العذاب) أي لولا ما حتم الله من تأخير العذاب إلى يوم القيامة

لجاءهم العذاب قريباً سريعاً كما استعجلوه ثم قال (ولياً بينهم بغتة) أى فجأة (وهم لا يشعرون * يستعجلونك بالعذاب وإن جهنم لمحيطة بالكافرين) أى يستعجلون العذاب وهو واقع بهم لا محالة. قال شعبة عن سماك عن عكرمة. قال فى قوله (وإن جهنم لمحيطة بالكافرين) قال البحر وقال ابن حاتم حدثنا على بن الحسين حدثنا عمر بن إسماعيل بن مجالد حدثنا أبى عن مجاهد عن الشعبي أنه سمع ابن عباس يقول (وإن جهنم لمحيطة بالكافرين) وجهنم هو هذا البحر الأخضر تنتثر الكواكب فيه وتكور فيه الشمس والقمر ثم يوقد فيكون هو جهنم وقال الإمام أحمد حدثنا أبو عاصم أخبرنا عبد الله بن أمية حدثنى محمد بن حبي أخبرنى صفوان بن يعلى عن أبيه أن النبى ﷺ قال « البحر هو جهنم » قالوا ليعلى فقال: ألا ترون أن الله تعالى يقول (ناراً أحاط بهم سرادقها) قال لا والذى نفس يعلى بيده لا أدخلها أبداً حتى أعرض على الله ولا يصيبني منها قطرة حتى أعرض على الله تعالى هذا تفسير غريب وحديث غريب جداً والله أعلم ثم قال عز وجل (يوم يغشاهم العذاب من فوقهم ومن تحت أرجلهم) كقوله تعالى (لهم من جهنم مهاد ومن فوقهم غواش) وقال تعالى (لهم من فوقهم ظلك من النار ومن تحتهم ظلك) وقال تعالى (لو يعلم الذين كفروا حين لا يكفون عن وجوههم النار ولا عن ظهورهم) الآية فالنار تغشاهم من سائر جهاتهم وهذا أبلغ في العذاب الحسى وقوله تعالى (وتقول ذوقوا ما كنتم تعملون) تهديد وتقريع وتوبيخ وهذا عذاب معنوى على النفوس كقوله تعالى (يوم يسبحون فى النار على وجوههم ذوقوا مس سقر * إنا كل شىء خلقناه بقدر) وقال تعالى (يوم يدعون إلى نار جهنم دعاء * هذه النار التى كنتم بها تكذبون * أفسحوا لهذا أم أتم لا تبصرون * اصلوها فاصبروا أو لا اصبروا سواء عليكم إنما تجزون ما كنتم تعملون)

﴿ يَبَادِيُ الَّذِينَ ءَامَنُوا إِنَّ اَرْضِي وَاسِعَةٌ فَايَسَى فَاَعْبُدُونِ * كُلُّ نَفْسٍ ذَائِقَةُ الْمَوْتِ ثُمَّ اِلَيْنَا تُرْجَعُونَ * وَالَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَنُبَوِّئَنَّهُمْ مِنَ الْجَنَّةِ غُرَفًا تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْاَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا نِعْمَ اَجْرُ الْعَمَلِينَ * الَّذِينَ صَبَرُوا وَكَلَى رَبَّهُمْ يَتَوَكَّلُونَ * وَكَأَيِّنْ مِنْ دَابَّةٍ لَّا تَحْمِلُ رِزْقَهَا اللّٰهُ يَرْزُقُهَا وَايًّا كُمْ وَهُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ ﴾

هذا أمر من الله تعالى لعباده المؤمنين بالهجرة من البلد الذى لا يقدرّون فيه على إقامة الدين إلى أرض الله الواسعة حيث يمكن إقامة الدين بأن يوحّدوا الله ويعبدوه كما أمرهم (يا عبادى الذين آمنوا إن أرضى واسعة فإياى فاعبدون) قال الامام أحمد حدثنا يزيد بن عبد ربه حدثنا بقية بن الوليد حدثنى جبير بن عمرو القرشى حدثنى أبو سعد الأنصارى عن أبى بحر مولى الزبير بن العوام عن الزبير بن العوام قال : قال رسول الله ﷺ « البلاد بلاد الله والعباد عباد الله فحينما أصبت خيراً فأقم » ولهذا لما ضاق على المستضعفين بمكة مقامهم بها خرجوا مهاجرين إلى أرض الحبشة ليأمنوا على دينهم هناك فوجدوا خير المنزلين هناك أصحمة النجاشى ملك الحبشة رحمه الله تعالى فأواهم وأيدهم بنصره وجعلهم سيوما بيلاده ثم بعد ذلك هاجر رسول الله صلى الله عليه وسلم والصحابة الباقون إلى المدينة النبوية يثرب المطهرة ثم قال تعالى (كل نفس ذائقة الموت ثم إلینا ترجعون) أى أينما كنتم يدرككم الموت فكونوا فى طاعة الله وحيث أمركم الله فهو خير لكم فإن الموت لا بد منه ولا محيد عنه ثم إلى الله المرجع والمآب فمن كان مطيعاً له جازاه أفضل الجزاء ووافاه أتم الثواب ولهذا قال تعالى (والذين آمنوا وعملوا الصالحات لنبوتنهم من الجنة غرفاً تجري من تحتها الأنهار) أى لنسكنهم منازل عالية فى الجنة تجري من تحتها الأنهار على اختلاف أصنافها من ماء وخمر وعسل ولبن يصرفونها ويحرقونها حيث شاءوا (خالدين فيها) أى ما كثرين فيها أبداً لا ييغون عنها حولا (نعم أجر العاملين) نعمت هذه الغرف أجر على أعمال المؤمنين (الذين صبروا) أى على دينهم وهاجروا إلى الله ونابدوا الأعداء

وفارقوا الأهل والأقرباء ابتغاء وجه الله ورجاء ما عنده وتصديق موعوده قال ابن أبي حاتم رحمه الله حدثنا أبي أخبرنا صفوان المؤذن أخبرنا الوليد بن مسلم أخبرنا معاوية بن سلام عن أخيه زيد بن سلام عن جده أبي سلام الأسود حدثني أبو معاوية الأشعري أن أبا مالك الأشعري حدثه أن رسول الله ﷺ حدثه أن في الجنة غرفا يرى ظاهرها من باطنها وباطنها من ظاهرها أعدها الله تعالى لمن أطعم الطعام وأطاب الكلام ، وتابع الصلاة والصيام وقام بالليل والناس نيام (وطى ربهم يتوكلون) في أحوالهم كلها في دينهم وديانهم . ثم أخبرهم تعالى أن الرزق لا يختص ببقعة بل رزقه تعالى عام لخلقهم حيث كانوا وأين كانوا بل كانت أرزاق المهاجرين حيث هاجروا أكثر وأوسع وأطيب فانهم بعد قليل صاروا حكام البلاد في سائر الأقطار والأمصار ولهذا قال تعالى (وكأين من دابة لا تحمل رزقها) أي لا تطيق جمعه وتحصيله ولا تدخر شيئا لغد (الله يرزقها وإياكم) أي الله يقيض لها رزقها على ضعفها ويسره عليها فيبعث إلى كل مخلوق من الرزق ما يصلحه حتى النور في قرار الأرض ، والطير في الهواء والحيتان في الماء . قال تعالى (وما من دابة في الأرض إلا على الله رزقها ويعلم مستورها ومستودها كل في كتاب مبين) وقال ابن أبي حاتم حدثنا محمد ابن عبد الرحمن الهروي حدثنا يزيد يعني ابن هارون حدثنا الجراح بن منهال الجزري - هو أبو العطوف - عن الزهري عن رجل عن ابن عمر قال : خرجت مع رسول الله ﷺ حتى دخل بعض حيطان المدينة فجعل يلتقط من التمر ويأكل فقال لي « يا ابن عمر مالك لا تأكل ؟ » قال قلت لأشبهه يا رسول الله قال « لكنني أشبهه وهذا صبح رابعة منذ لم أذق طعاما ولم أجده ولو شئت لدعوت ربي فأعطاني مثل ملك كسرى وقيصر ، فكيف بك يا ابن عمر إذا بقيت في قوم يحبون رزق سنتهم بضعف اليقين ؟ » قال فوالله ما برحنا ولا رمنا حتى نزلت (وكأين من دابة لا تحمل رزقها الله يرزقها وإياكم وهو السميع العليم) فقال رسول الله ﷺ « إن الله عز وجل لم يأمرني بكنز الدنيا ولا باتباع الشهوات فمن كنز دنياه يريد بها حياة باقية فإن الحياة بيد الله ، ألا وإني لا أكنز دينارا ولا درهما ولا أخبأ رزقا لغد » هذا حديث غريب وأبو العطوف الجزري ضعيف وقد ذكروا أن الثراب إذا قفس عن فراخه البيض خرجوا وهم بيض فإذا رآهم أبواهم كذلك نقرأ عنهم أياما حتى يسود الريش فيظل الفرخ فاتحاً فاه يتفقد أبويه فيقيض الله تعالى طيراً صغيراً كالبرغش فيغشاه فيتقوت به تلك الأيام حتى يسود ريشه والأبوان يتفقدانه كل وقت فكلما رآوه أبيض الريش نقرأ عنه فإذا رآوه قد أسود ريشه عطفوا عليه بالحضانة والرزق ولهذا قال الشاعر

يا رازق النعاب في عشه * وجابر العظم الكسير المبيض

وقد قال الشافعي في جملة كلام له في الأوامر كقول النبي ﷺ « سافروا تصحوا وترزقوا » قال البيهقي أخبرنا إمام أبو الحسن علي بن أحمد بن عبدان أخبرنا أحمد بن عبيد أخبرنا محمد بن غالب حدثني محمد بن سنان أخبرنا محمد بن عبد الرحمن بن يزداد شيخ من أهل المدينة حدثنا عبد الله بن دينار عن ابن عمر قال : قال رسول الله ﷺ « سافروا تصحوا وتغنموا » قال ورويناه عن ابن عباس ، وقال الإمام أحمد حدثنا قبيصة أخبرنا ابن لهيعة عن دراج عن عبد الرحمن بن حنبل عن أبي هريرة قال : قال رسول الله ﷺ « سافروا ترحموا ، وصوموا تصحوا واغزوا تغنموا » وقد ورد مثل حديث ابن عمر عن ابن عباس مرفوعا وعن معاذ بن جبل موقوفا ، وفي لفظ « سافروا مع ذوى الجهد والميسرة » قال ورويناه عن ابن عباس وقوله (وهو السميع العليم) أي السميع لأقوال عباده العليم بحركاتهم وسكناتهم

﴿ وَالَّذِينَ سَأَلْتَهُمْ مَنْ خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ وَسَخَّرَ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ لَيَقُولُنَّ اللَّهُ فَأَنَّى يُؤْفَكُونَ ﴾ * اللَّهُ يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ وَيَقْدِرُ لَهُ إِنَّ اللَّهَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ * وَالَّذِينَ سَأَلْتَهُمْ مَنْ نَزَّلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَحْيَا بِهِ الْأَرْضَ مِنْ بَعْدِ مَوْتِهَا لَيَقُولُنَّ اللَّهُ قُلِ الْحَمْدُ لِلَّهِ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْقِلُونَ ﴿

يقول تعالى مقررآ أنه لا إله إلا هو لأن المشركين الذين يعبدون معه غيره معترفون بأنه المستقل بخلق السموات والأرض والشمس والقمر وتسخير الليل والنهار ، وأنه الخالق الرازق لعباده ومقدر آجالهم ، واختلافها واختلاف أرزاقهم . فتفاوت بينهم فمنهم الغني والفقير وهو العليم بما يصلح كلامهم ومن يستحق الغنى ممن يستحق الفقر ، فذكر أنه المستقل بخلق الأشياء للتفرد بتدبيرها ، فإذا كان الأمر كذلك فلم يعبد غيره ؟ ولم يتوكل على غيره ؟ فكما أنه الواحد في ملكه فليكن الواحد في عبادته وكثيراً ما يقرر تعالى مقام الإلهية بالاعتراف بتوحيد الربوبية . وقد كان المشركون يعترفون بذلك كما كانوا يقولون في تلبيتهم: ليك لا شريك لك ، إلا شريكاً هو لك ، تملكه وما ملك

﴿ وَمَا هَذِهِ الْحَيَاةُ الدُّنْيَا إِلَّا لَهُوٌّ وَلَمِبٌّ وَإِنَّ الدَّارَ الْآخِرَةَ لَهِيَ الْحَيَوَانُ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ * فَإِذَا رَكِبُوا فِي الْفَلَكِ دَعَوْا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ فَلَمَّا نَجَّيْنَاهُمْ إِلَى الْبَرِّ إِذَا هُمْ يُشْرِكُونَ * لِيَكْفُرُوا بِمَا ءَاتَيْنَاهُمْ وَلِيَتَمَتَّعُوا فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ ﴾

يقول تعالى مخبراً عن حقارة الدنيا وزوالها وانقضائها ، وأنها لا دوام لها وغاية ما فيها لهو ولعب (وإن الدار الآخرة هي الحيوان) أي الحياة الدائمة الحق الذي لا زوال له ولا انقضاء بل هي مستمرة أبد الآباد ، وقوله تعالى (لو كانوا يعلمون) أي لا أتروا ما يبقى على ما يفنى ثم أخبر تعالى عن المشركين أنهم عند الاضطراب يدعون وحده لا شريك له فهلا يكون هذا منهم دائماً (فإذا ركبوا في الفلك دعوا الله مخلصين له الدين) كقوله تعالى (وإذا مسكم الضر في البحر ضل من تدعون إلا إياه فلما نجاكم إلى البر أعرضتم) الآية وقال ههنا (فلما نجاكم إلى البر إذا هم يشركون) وقد ذكر محمد بن إسحاق عن عكرمة بن أبي جهل أنه لما فتح رسول الله ﷺ مكة ذهب فأراً منها فركب في البحر لينذهب إلى الحبشة اضطربت بهم السفينة فقال أهلها يا قوم أخلصوا لربكم الدعاء فانه لا ينجي ههنا إلا هو فقال عكرمة والله لئن كان لا ينجي في البحر غيره فانه لا ينجي في البر أيضاً غيره اللهم لك على عهد لئن خرجت لأذهبن فلا ضعن يدي في يد محمد فلا جدنه رء وفارحياً فكان كذلك وقوله تعالى (ليكفروا بما آتيناهم وليتمتعوا) هذه اللام بسمها كثير من أهل العربية والتفسير وعلماء الأصول لام العاقبة لأنهم لا يقصدون ذلك ولا شك أنها كذلك بالنسبة إليهم وأما بالنسبة إلى تقدير الله عليهم ذلك وتقيضه إليهم لذلك فهي لام التعليل ، وقد قدمنا تقرير ذلك في قوله (ليكون لهم عدواً وحزناً)

﴿ أُولَئِكَ يَرَوْنَ أَنَّا جَعَلْنَا حَرَمًا مَاءً آمِنًا وَيَتَخَطَّفُ النَّاسُ مِنْ حَوْلِهِمْ أَفَبِالْبَاطِلِ يُؤْمِنُونَ وَبِنِعْمَةِ اللَّهِ يَكْفُرُونَ * وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ افْتَرَى عَلَى اللَّهِ كَذِبًا أَوْ كَذَّبَ بِالْحَقِّ لَمَّا جَاءَهُ أَلَيْسَ فِي جَهَنَّمَ مَثْوًى لِّلْكَافِرِينَ * وَالَّذِينَ جَاهَدُوا فِينَا لَنَهْدِيَنَّهُمْ سُبُلَنَا وَإِنَّ اللَّهَ لَمَعَ الْمُحْسِنِينَ ﴾

يقول تعالى ممتناً على قريش فيما أحلهم من حرمة الذي جعله للناس سواء العاكف فيه والباد ومن دخله كان آمناً فهم في أمن عظيم والأعراب حوله ينهب بعضهم بعضاً ويقتل بعضهم بعضاً كما قال تعالى (إلا يلاف قريش) إلى آخر السورة . وقوله تعالى (أفبالباطل يؤمنون وبنعمة الله يكفرون) أي أفكان شكرهم على هذه النعمة العظيمة أن أشركوا به وعبدوا معه غيره من الأصنام والأنداد (بدلوا نعمة الله كفراً وأحلوا قومهم دار البوار) فكفروا بنبي الله وعبدوا رسوله فكان اللائق بهم إخلاص العبادة لله وأن لا يشركوا به وتصديق الرسول وتعظيمه وتوقيره فكذبوه فقاتلوه فأخرجوه من بين ظهرهم ولهذا سلبهم الله تعالى ما كان أنعم به عليهم وقتل من قتل منهم بيد ثم

صارت الدولة لله ولرسوله وللمؤمنين ففتح الله على رسوله مكة وأرغم آتافهم وأذل رقابهم ، ثم قال تعالى (ومن أظلم ممن افترى على الله كذبا أو كذب بالحق لما جاءه) أى لا أحد أشد عقوبة ممن كذب على الله فقال إن الله أوحى إليه ولم يوح إليه شيء . ومن قال سأنزل مثل ما أنزل الله ، وهكذا لا أحد أشد عقوبة ممن كذب بالحق لما جاءه فالأول مفتر والثانى مكذب ولهذا قال تعالى (أليس في جهنم مثوى للكافرين) ثم قال تعالى (والذين جاهدوا فينا) يعنى الرسول صلى الله عليه وسلم وأصحابه وأتباعه إلى يوم الدين (لتهديهم سبلنا) أى لنبصرهم سبلنا أى طرقنا فى الدنيا والآخرة . قال ابن أبى حاتم حدثنا أبى حدثنا أحمد بن أبى الحوارى أخبرنا عباس الهمداني أبو أحمد من أهل عكا فى قول الله تعالى (والذين جاهدوا فينا لتهديهم سبلنا وإن الله لمع المحسنين) قال الذين يعملون بما يعلمون يهديهم الله لا يعلمون قال أحمد بن أبى الحوارى فحدثت به أبا سليمان يعنى الداراني فأعجبه وقال ليس ينبغى لمن ألهم شيئا من الخير أن يعمل به حتى يسمعه فى الأثر ، فإذا سمعه فى الأثر عمل به وحمد الله حتى وافق ما فى قلبه . وقوله (وإن الله لمع المحسنين) قال ابن أبى حاتم حدثنا أبى حدثنا عيسى بن جعفر قاضى الرى حدثنا أبو جعفر الرازى عن الغيرة عن الشعبي قال : قال عيسى بن مريم عليه السلام: إنما الإحسان أن تحسن إلى من أساء إليك ليس الإحسان أن تحسن إلى من أحسن إليك والله أعلم . آخر تفسير سورة العنكبوت والله الحمد واللثة .

(تفسير سورة الروم وهى مكة)

(بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ)

﴿ اَلَمْ نَغْلِبِ الرُّومَ * فِي اَدْنَى الْاَرْضِ وَهُمْ مِّنْ بَعْدِ غَلَبِهِمْ سَيَغْلِبُونَ * فِي بَضْعِ سِنِينَ لِلّٰهِ الْاَمْرُ مِنْ قَبْلُ وَمِنْ بَعْدُ وَيَوْمَئِذٍ يَفْرَحُ الْمُؤْمِنُونَ * بِنَصْرِ اللَّهِ يَنْصُرُ مَن يَشَاءُ وَهُوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ * وَعَدَّ اللَّهُ لَا يُخْلِفُ اللَّهُ وَعْدَهُ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ * يَعْلَمُونَ ظَهْرًا مِّنَ الْحَيٰوةِ الدُّنْيَا وَهُمْ عَنِ الْآخِرَةِ هُمْ غٰفِلُونَ ﴾

نزلت هذه الآيات حين غلب ساجور ملك الفرس على بلاد الشام وما والاها من بلاد الجزيرة وأقاصى بلاد الروم فاضطر هرقل ملك الروم حتى أُلجأ إلى القسطنطينية وحاصره فيها مدة طويلة ثم عادت الدولة لهرقل كما سيأتى . وقال الإمام أحمد حدثنا معاوية بن عمرو حدثنا أبو إسحاق عن سفيان الثوري عن حبيب بن أبى عمرة عن سعيد بن جبير عن ابن عباس رضى الله عنهما فى قوله تعالى (ألم * غلبت الروم فى أدنى الأرض) قال غلبت وغلبت ، قال كان المشركون يحبون أن تظهر فارس على الروم لأنهم أصحاب أوثان ، وكان المسلمون يحبون أن تظهر الروم على فارس لأنهم أهل الكتاب فذكر ذلك لأبى بكر فذكره أبو بكر لرسول الله صلى الله عليه وسلم فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم « أما إنهم سيغلبون » فذكره أبو بكر لهم فقالوا اجعل بيننا وبينك أجلا فان ظهرنا كان لنا كذا وكذا وإن ظهرتم كان لكم كذا وكذا فجعل أجل خمس سنين فلم يظهروا فذكر ذلك أبو بكر لرسول الله صلى الله عليه وسلم فقال « ألا جعلتها إلى دون - أراه قال العشر - » قال سعيد بن جبير البضع ما دون العشر ثم ظهرت الروم بعد ذلك فذكره قوله (ألم * غلبت الروم فى أدنى الأرض وهم من بعد غلبهم سيغلبون - إلى قوله - وهو العزيز الرحيم) هكذا رواه الترمذى والنسائى جميعا عن الحسين بن حريث عن معاوية بن عمرو عن أبى إسحاق الفزارى عن سفيان الثوري به وقال الترمذى حديث حسن غريب إنما نعرفه من حديث سفيان عن حبيب . ورواه ابن أبى حاتم عن محمد بن إسحاق الصاغانى عن معاوية بن عمرو به . ورواه ابن جرير حدثنا محمد بن المثني حدثنا محمد بن سعيد أو سعيد التعلبي الذى يقال